

فجر التاريخ الأفريقي^s

تأليف
نخبة من أساتذة الجامعات البريطانية



ترجمة
عبد الواحد الإمبابي

فجر التاريخ الأفريقي

تأليف

نخبة من أساتذة الجامعات البريطانية

ترجمة

عبد الواحد الإمباي

الكتاب: فجر التاريخ الأفريقي

الكاتب: نخبة من أساتذة الجامعات البريطانية

ترجمة: عبد الواحد الإمباي

الطبعة: 2022

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مذكور- الهرم - الجيزة - جمهورية مصر
العربية

هاتف : 35825293 - 35867576 - 35867575

فاكس : 35878373



<http://www.bookapa.com>

E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

فجر التاريخ الأفريقي/ نخبة من أساتذة الجامعات البريطانية، ترجمة: عبد الواحد الإمباي

- الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

164 ص، 21*18 سم.

الترقيم الدولي: 1 - 300 - 991 - 977 - 978

أ - العنوان رقم الإيداع : 19660 / 2021

فجر التاريخ الأفريقي

@booka

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»



@booka.

وادي النيل

أ. ج. أركل

A. J. Arkell

عندما يتجه الإنسان من الشمال إلى الجنوب يجد أن أفريقيا تتكون من الأحزمة Belts لمناطق مختلفة تماماً، تمتد من الشرق إلى الغرب عبر القارة.

وتمثل منطقة جنوب حزام البحر الأبيض المتوسط الخصيب - حيث أمطار الشتاء - حزاماً عميقاً يضم الصحراء الليبية والصحراء الكبرى، وفي وسطها توجد واحة من أكثر صحاري العالم حرارة وجفافاً على الرغم من وجود مجموعة صغيرة من الواحات الواسعة التي تكونت فيها بفعل عمليات الرياح التي جوفتها داخل الحجر الرملي تحت مستوى الماء.

وإلى جنوبي الصحراء يوجد حزام منطقة تنتج فيها أمطار الصيف نباتات تتدرج في كثافتها من الحشائش إلى الغابات المتفرقة، وكذلك إلى الغابات الكثيفة ثم إلى الأحرش الاستوائية حول خط الاستواء، ويعتبر حزام السودان الذي يمثل منطقة منتصف الحزام النباتي أغناها جميعاً من الناحية الاقتصادية. كما أنه يمثل في الوقت نفسه أسهل طريق للمسافرين عبر القارة من الشرق إلى الغرب أو العكس ذلك لأن الآبار الموجودة هناك ليست متباعدة جداً، ولأن الغابات الموجودة هناك أيضاً ليست كثيفة إلى حد كبير.

ولقد ظل الحزام الصحراوي يتسع شيئاً فشيئاً خلال الخمسة آلاف عام أو ما يقرب من ذلك، أي منذ أن بدأ التاريخ في مصر القديمة، وأدى ذلك إلى أن الطريق الذي كان يعتبر أحسن طريق بين الشرق والغرب منذ خمسة آلاف عام قد أصبح الآن صحراء بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، بينما كان أحسن طريق الآن موجوداً يومذاك في الأحراش التي لا يمكن اختراقها.

مع هذه الأحزمة المتباينة المتنوعة بتقاطع نهر النيل الذي ينبع من المنطقة الجبلية القريبة من خط الاستواء في زوايا قائمة، وبهذا يشكل حلقة اتصال وترباط عبر الصحراء .. بين المنطقة الساحلية والأراضي المصرية من ناحية، والسودان الأوسط الخصيب من ناحية أخرى. ومنذ اللحظة التي بدأ فيها التاريخ في مصر حوالي عام 3000 قبل الميلاد، وحين وحد أحد الغزاة - ولعله آسيوي الأصل - مصر العليا مع أراضي الدلتا، وأقام المملكة التي كان عليها أن تستمر مع تقلبات الزمن المختلفة حوالي ثلاثة آلاف عام، أقول منذ هذه اللحظة بدأت هذه المملكة تنشر نفوذها ناحية الجنوب داخل أفريقيا.

وفي عام 2700 قبل الميلاد أصبح ينظر إلى الملك على أنه ملك مقدس مسئول، عن إخصاب أراض الدولة وإمائها، وممثل الإله على الأرض، يلحق به في السماء عند موته.

وقد عثر في المنطقة القريبة من وادي حلفا عند الحاجز الطبيعي الذي صنعه الشلال الثاني للنيل، عثر على صورة محفورة على إحدى الصخور

تسجل غزو أحد ملوك الأسرة الأولى في مصر لهذه المنطقة وانتصاره عليها، كما تبين الزعيم المحلي أسيرا، وقد طفت جثث أتباعه فوق سطح النهر. ثم حدث بعد ذلك بحوالي خمسة قرون أو ستة قرون أن قام بعض المغامرين من التجار المصريين بنقش أوصاف على قبورهم في أسوان تشرح كيفية اكتشافهم الأراضي اليابسة التي تقع جنوبي وغربي الشلال الأول بواسطة قوافل الحمير التي كانوا يستخدمونها في الرحلة، وربما وصل هؤلاء التجار أيضاً إلى منطقة بحيرة تشاد أو ربما منطقة نيجيريا الشمالية، وأحضروا معهم - عند عودتهم - بعضاً من السلع الأفريقية مثل لبان الدكر Frankincense وخشب الأبنوس وجلود النمر المرقطة والعاج، وفي إحدى المرات أحضروا معهم قزماً راقصاً dancing dwarf وربما سلك تجار آخرون طريقاً آخر يقع إلى بعد كبير من الشمال ويسير من واحدة إلى أخرى حتى نهر النيجر.

وفي عام 2000 قبل الميلاد أقيمت سلسلة من الحصون الهائلة المصنوعة من طوب اللبن على النيل، لكي تقيم حداً بين مصر ودولة كوش المجاورة لها من الجنوب ولكي تحمي مدينة الحدود التي ظهرت وامتت بالقرب من وادي حلفا، وفي الوقت نفسه أقيم عند مقدمة هذا الحد مركز تجاري عند عاصمة أمير كوش.

وقد عثر على مجموعة متماثلة من الأحجار المنقوش على كل منها فأس نحاسية ذات مقبضين، من هذه الفؤوس التي تحمل الطابع المصري لهذه الفترة، ولم يعثر عليها في هذه المنطقة فحسب، بل عثر عليها كذلك في جهات عديدة أخرى عبر المنطقة إلى الغرب حتى نيجيريا نفسها ..

يشير وجودها على الأقل إلى أن نفوذاً وتأثيراً من مصر قد عرفا طريقهما إلى غربي أفريقيا في ذلك العهد. وليس من شك في أن هذه المنطقة التي تقع في وادي النيل تماماً عبر حدود مصر الجنوبية كانت في الواقع المجرى الحيوي الذي انطلق نفوذ مصر القديمة عن طريقه ناحية الجنوب إلى داخل بقية أجزاء أفريقيا.

ولقد كان المصريون يطلقون عليها اسم كوش، ثم أصبحت تعرف بعد ذلك أثناء العصور الوسطى باسم النوبة. وكان تاريخ بلاد كوش مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتاريخ مصر، فقد حدث في إحدى الفترات أن احتلت مصر هذه البلاد واندمجت في مصر نفسها، وكان ذلك في حوالي عام 1500 قبل الميلاد.

ويمكن أن نعثر على دليل احتلال مصر لبلاد كوش في أطلال المعابد الحجرية الدقيقة التي بنيت في كل مدينة صغيرة تقريباً.

وتوضح صور الأفريقيين الزنوج وكذلك صور القروء الأفريقية الموجودة في الفن المصري لهذه الفترة، نوضح في جلاء صلة مصر ببلاد الزنوج، وهي الصلة التي كان المصريون يقيمونها لأول مرة في ذلك الوقت. كذلك فإن هناك في جنوب الصحراء عدداً قليلاً - إذا كان ثمة بالمرّة - من الرسوم الصخرية يرجع تاريخها إلى أبعد من عام 1500 قبل الميلاد تقريباً حين أوحى وجود حوائط المعابد المزيّنة التي بناها المصريون في بلاد كوش إلى الشعوب الأفريقية - ربما لأول مرة - بفكرة الصور المنقوشة الملونة.

على أن هناك دليلاً آخر للنفوذ المصري الذي ترك أثراً له في أفريقيا في ذلك الوقت، يتمثل في بقاء "ساق سكين اللحم" كشعار للملك عند بعض زعماء أفريقيا الاستوائية، والمعروف أن هذا الشعار قد دخل إلى مصر من آسيا في حوالي عام 1300 قبل الميلاد باعتباره رمزاً أو شعاراً ملكياً.

وبعد حوالي خمسة قرون من اندماج بلاد كوش في مصر فقدت هذه البلاد - أي بلاد كوش - ملامحها المميزة وذابت في المملكة المصرية حتى أننا لا نستطيع أن نعثر على وثائق تسجل ما حدث في هذه البلاد خلال هذه الفترة. غير أن الآلة تنعكس في النهاية في حوالي عام 700 قبل الميلاد، فيقوم حكام كوش في ذلك الوقت بعدة حملات على مصر تنتهي باحتلالهم لها باعتبارهم المصلحين الذين كانوا يهدفون إلى إعادة مصر مرة أخرى إلى حظيرة الدين والتقاليد التي كان المصريون يمارسونها من قبل .. منذ ألف عام أو يزيد.

ثم ظل حكام كوش يحافظون إلى حد ما، ولمدة جيلين على بقاء عظمة مصر، كما نجحوا كذلك في تحقيق المزيد من الرفاهية لبلادهم، وأعني بها منطقة السودان الشمالي، حيث أقاموا فيها عدداً من المعابد الرائعة على النمط المصري. ومن المحتمل أن يكون النفوذ الحضاري لمصر قد تسرب في ظل إمبراطوريتهم إلى امتداد يصل إلى خمسمائة ميل جنوبي الخرطوم. لأن سكان النيل قد ذكروا في كتاب النبي إسحاق على أنهم الشعوب التي تتميز بطول القامة ونعومة البشرة، والذين تقسم الأنهار بلادهم.

ولم يستمر الأمر للكوشيين إلى أمد طويل، فإنهم قد اصطدموا عند الطرف الآخر من دولتهم حيث كانت الحدود المصرية تتاخم حدود فلسطين بالدولة العسكرية التي كانت تتوسع يومذاك، ونقصد بها الدولة الآشورية التي كانت جيوشها مسلحة بكميات ضخمة من الأسلحة الجديدة المصنوعة من الحديد والمعادن، ولم يكن للأسلحة البدائية التي كانت تحملها القبائل الكوشية أية قيمة تذكر أمام أسلحة هؤلاء الآشوريين، ففروا إلى السودان متقهقرين.

ثم قامت في مصر بمساعدة الآشوريين أسرة مصرية حاكمة منافسة وفدت من منطقة الدلتا، وأخذت تبث الكثير من مشاعر الكراهية تجاه الكوشيين الذين أسروا بعض النساء وأرسلوهن إلى السودان للعمل هناك في معابدها.

ولما كان فرعون مصر يخشى أن يعود الكوشيون إلى غزو مصر مرة أخرى فقد بعث في حوالي عام 591 قبل الميلاد بحملة عسكرية، تشكل رأس الحربة فيها هيئة من الجنود المرتزقة الأجانب المسلحين بالأسلحة الحديدية الجديدة. وقد قامت هذه الحملة بنهب مدينة ناباتا العاصمة القديمة مما اضطر الكوشيين إلى نقل عاصمتهم إلى مكان آخر أبعد إلى الجنوب عند منطقة مروى.

وفي منطقة مروى حيث أمكن الحصول على كل من حجر الحديد ووقود الخشب بدأ الكوشيون في ذلك الوقت يصنعون الأسلحة الحديدية وبعض الآلات الأخرى، على المستوى الذي جعل أحد علماء الحفريات

يصف مروى بأنها كانت أشبه بمنطقة بيرمينجهام Birmingham بالنسبة لأفريقيا، وذلك بعد أن فحص هذا العالم أكوام رماد الفحم المتخلفة في المنطقة التي يخترقها الآن الخط الحديدي الذي يصل إلى الخرطوم.

وقد رأيت ذلك بنفسى⁽¹⁾ وأعتقد بأن هذا الوصف المروى وصف عادي وصحيح. ولا شك في أن علمية صهر الحديد في هذا الجزء من أفريقيا قد ظلت لفترة طويلة سراً من الأسرار العلمية، تماماً كما هو الحال بالنسبة لعمليات تفتيت الذرة في عصرنا الحديث. ولعل هذا ما يفسر لنا معنى التقاليد والمحرمات العجيبة Taboos فيما يتعلق بصناعة الحديد، والتي لا تزال موجودة حتى الآن في مناطق كثيرة من أفريقيا. على أنه لا يوجد هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد بأن عملية صهر الحديد قد اخترعت فقط وعلى نحو مستقل في أفريقيا الزنجية، ولكن هناك أكثر من سبب يدفعنا إلى تصديق أن معرفة صناعة الحديد قد بدأت تنتشر شيئاً فشيئاً عبر أفريقيا من منطقة مروى عاصمة الكوشيين.

ولقد ظلت الأسرة الكوشية الحاكمة بعد أن طردت من مصر، ظلت تحكم السودان الشمالي معظم الفترة التي امتدت ألف عام، وكانت قبورهم في أول الأمر تتكون من التوابيت الحجرية التي كانوا ينقشون عليها بخطوط هيروغليفية صحيحة نصوص الطقوس المصرية، وتوضع هذه التوابيت في دهاليز أو حجرات تقام تحت أهرامات مبنية بناء جيداً من الحجر، ثم تغير نظام هذه القبور، فلم يعد الكوشيون يضعون فيها التوابيت، كما كانوا

(1) المؤلف

يفعلون من قبل، وأصبحت الأهرامات الحجرية أقل دقة وجودة من هذه الأهرامات التي كانوا يقيمونها من قبل أيضاً، وأصبحوا كذلك يكتبون النقوش أولاً في شكل هيروغليفية محلية، ثم لم يعودوا يكتبون نقوشاً بالمرّة، وأخيراً أصبحوا يقيمون قبورهم تحت أهرامات صغيرة جداً، مبنية من الطوب الأحمر.

وهكذا توضح عادات الدفن التي عرضنا لها هنا كيف تشوهت الحضارة المصرية التي انطلقت يوماً ما من مصر، وذلك حين انقطعت صلتها بمكانها الأول.

غير أن فكرة الملك المقدس وكذلك معرفة صناعة الحديد - وكلاهما قد اقتبس من مصر - قد ظلا قائمين لم يتلاشيا مطلقاً على الرغم من أن معرفة الكتابة المصرية قد ضاعت.

وإلى الشرق من مروي قامت مملكة أكسوم (في القرن الرابع الميلادي) وأصبحت ذات سلطان كبير بعد أن سيطرت على المنتجات الشرقية التي كانت تحظى برواج هائل في أسواق العالم الروماني، ولعل مملكة أكسوم هذه أثارت نزاعاً حول أحد الحدود التي لم تكن ذات أهمية تذكر بين البدو، حتى تتخذ من ذلك ذريعة للهجوم على مروي والقضاء عليها بعد أن هزمت وأصابتها الشيخوخة، وذلك لكي تضمن وصول الذهب الذي كان يصل إلى البحر الأبيض المتوسط من كل من غرب أفريقيا وأعالي النيل الأزرق على حدود الحبشة.

ونستطيع أن نستنتج من بعض النقوش والأطلال، كما نستطيع

كذلك أن نستنتج من تقاليد الممالك المقدسة المختلفة. التي كانت تقع على امتداد الطريق إلى الأطلنطي أن الأسرة المالكة في مروي وهي الأسرة التي حكمت هناك أكثر من ألف عام قد انتقلت بعد سقوط مروي. إلى ناحية الغرب - بعيداً عن النيل - على طول الطريق الذي يعتبر أسهل كل الطرق الواقعة بين الصحراء والغابة حيث أقامت مملكة صغيرة أخرى كان يتمتع حاكمها بالقداسة. ولم تكن التنظيمات التي تسودها سوى انعكاس للتنظيمات التي كانت قائمة في مروي، وهي تنظيمات مصرية تشوهت معالمها الأصلية الأولى - كما سبق أن عرفنا ... ومع هؤلاء الكوشيين الذين هاجروا نحو الغرب انتقلت معرفة صناعة الحديد عبر أفريقيا ... فعلى هذا الطريق كانت بحيرة شاد تمثل نقطة الاتصال، ومن المحتمل أن صناعة الحديد حين عرفت في هذه المنطقة سرعان ما انتشرت بفضل أكثر من طريق إلى داخل أفريقيا في الجهات التي تقع إلى الجنوب والغرب من بحيرة شاد.

أن علينا أن نتجه إلى وادي النيل حين نريد أن نبحث عن حلقة الاتصال بين مصر وبين جميع مناطق أفريقيا جنوبها، وفي وادي النيل، خاصة منطقة مروي ... عاصمة الكوشيين.

لقد أصبح اسم مروي علماً على مرحلة هامة من مراحل التاريخ الأفريقي، ونقطة التقاء الحضارات، بل والطريق الذي نفذت من خلاله معرفة صناعة الحديد واستخدامه.

أفريقيا الشمالية

في العصر القرطاجني واليوناني والروماني

أ. أ. كوابونج

A. A. Kwapong

لشمال أفريقيا، وهي في هذا أشبه بإله الرومان القديم جانوس⁽²⁾ Janus وجهان: أحدهما يتجه نحو الشمال حيث يواجه البحر الأبيض المتوسط، وثانيهما نحو الجنوب حيث يواجه الصحراء الكبرى. وقد كان لكل من هذين العنصرين - البحر والصحراء - تأثير حاسم على تاريخ شعوب هذه المنطقة، تاريخها الثري المتنوع. أما دور البحر المتوسط فهو معروف جيداً لدارسي الآثار القديمة، ولا تزال الأطلال الرائعة التي بقيت من مدن سيربني، وليبتز، وماجنا، وسبراتا، وقرطاجنة وغيرها، لا تزال هذه الأطلال حتى يومنا هذا تذكر الرحالة المعاصرين في وضوح وجلاء بهذا العالم الذي اختفى ... عالم أفريقيا القرطاجنية الأفريقية الرومانية، ناهيك بالعدد الوفير من معاصر الزيتون والمزارع ذات الأسوار والحصون والخزانات والقناطر الموجودة في الأودية، وناهيك كذلك بمعالم الطريق الرومانية التي لا تزال قائمة حتى الآن على المسالك التي تؤدي إلى داخل الصحراء.

(²) إله أسطوري يقال أنه كان يتميز بوجهين أحدهما في مقدمة رأسه والآخر في مؤخرتها (المترجم).

ولقد أدى العمل المتواصل الذي قام به الباحثون وعلماء الآثار من دول كثيرة إلى الكشف خلال العقود الماضية القليلة عن كثير من الكنوز الثمينة التي كانت مدفونة - ومن ثم ظلت محفوظة - تحت الرمال طيلة عدة قرون طويلة، وبهذا اتسعت معلوماتنا عن الحضارات المختلفة التي ازدهرت في شمال أفريقيا أثناء العصر القديم اتساعاً عظيماً خاصة ذلك الضوء الذي قوبل الترحاب، لأنه كشف النقاب في السنوات الأخيرة عن الدور الذي لعبته كل من الصحراء والشعوب التي كانت تستوطن المناطق الداخلية والجنوبية منها في تحقيق ثروات وأمجاد شمال أفريقيا، وحتى لو بقيت كثير من تفاصيل الصورة لم تملأ فراغاتها بعد فإن خطوط هذه الصورة وهيكلها لن تكون مشوهة كما كان منتظراً.

وتبدأ قصتنا عند نهاية العصر الألفي الأول قبل الميلاد وهو علامة تقريبية مناسبة لما نحن بصده، فلو نظرنا إلى الشرق الأوسط لوجدنا المسرح كما يلي بإيجاز:

كانت الحضارات العظيمة لوادي النهر، أعني حضارة مصر وسومر قد ودعت ربيعها وكانت في ذلك الوقت تدخل مرحلة الانحطاط أو الانهيار وهي المرحلة التي وقعت خلالها فريسة للأشوريين أولاً ثم للفارسيين فيما بعد. وفي حوض إيجة كانت سيطرة الحيثيين في كل من آسيا الصغرى وماسينيا على الأراضي الرئيسية الإغريقية في مرحلة الزوال، ثم حلت الأخيرة محل إمبراطورية كريت المانوية البحرية، غير أنها كانت هي الأخرى تنهار وتتحطم قبل تدفق الدودينييين إليها وهم جماعة أخرى من المهاجرين الذين يتحدثون اللغة الإغريقية وفدوا من الشمال، وفي منطقة سوريا - فلسطين، وهي موطن

شعوب سامية مختلفة كانت بدورها خاضعة لمصر ومملكة ما بين النهرين، في هذه المنطقة كانت الدول البحرية المتفوقة هي دول مدن تابري وسيدون الإغريقية. أما منطقة بقية شمال أفريقيا غرب مصر فقد كانت تسكنها شعوب حامية مفككة التنظيم أصبحت تعرف بصفة جماعية باسم الليبيين.

وتمثل هذه العناصر أجداد البربر المحدثين الذين كانوا إما من البدو والرعاة أو من المزارعين المقيمين عند الحزام الساحلي لشمال أفريقيا. على أن أخصب أجزاء ساحل أفريقيا الشمالي وهي الأجزاء الصالحة للإقامة والاستقرار إنما كانت تتمثل في كل من سيرينكا (برقة) في مملكة ليبيا الحديثة، وكذلك بلاد المغرب التي تشمل اليوم دول تونس والجزائر ومراكش. غير أن منطقة شمال أفريقيا غرب مصر كانت لا تزال سراً غير معروف للشعوب التي كانت تعيش في الأجزاء الشمالية من البحر الأبيض المتوسط على الرغم من وجود أصداء لها يمكن أن نكتشفها في الأوديسا لهوميروس وكتاب "الأعاجيب" لأرجوناثس. أما النهاية التي كانت لها أهميتها، وأعني بها نهاية فترة عدم استقرار الشعوب وثوراتها فقد كانت تتمثل في ظهور الفينيقيين والإغريق كقوتين رئيسيتين متنافستين في ميادين التجارة والاستعمار في كل أرجاء منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد ظل توسع هذين الشعبين عاملاً سائداً في تاريخ القرون الخمسة التالية التي انتهت بأن أصبح لكل منهما مستعمرات مزدهرة على الساحل الشمالي لأفريقيا.

وكان الفينيقيون هم أول من جذبتهم إلى المنطقة القريبة من البحر الأبيض تجارة الصفيح والفضة التي كانت تحظى بالرواج وتأتي بالريح الوفير في طرشوش في أسبانيا الجنوبية. حتى إذا ما جاء القرن الثاني عشر قبل

الميلاد أبحر هؤلاء الفينيقيون إلى ما وراء مضائق جبل طارق حيث أقاموا عند ليكساس على الساحل الأطلنطي لمراكش مواطن ومستعمرات لهم هناك. وازداد الفينيقيون قوة وسلطاناً بفضل هذه التجارة المربحة، وسرعان ما تحولت المراكز التجارية الأخرى التي أقاموها في الجزر وحول ساحل المنطقة الغربية من حوض البحر الأبيض سرعان ما تحولت هذه المراكز إلى مستعمرات مزدهرة. وكانت مستعمرة أوتيكا وهي واحدة من المستعمرات الفينيقية في أفريقيا - أو في ليبيا، كما كانت معرفة لدى الإغريق يومذاك - كانت هذه المستعمرة أقدم هذه المستعمرات جميعها، كما أصبحت قرطاجنة أعظمها، فقد تأسست هذه المدينة في القرن التاسع قبل الميلاد، وليس لدينا هنا متسع لكي تذكر في تفصيل وأطنا ب تلك الأسطورة الرومانتيكية التي تدور حول تأسيس الملكة أليزا لهذه المدينة، وهي الأسطورة التي أضفى عليها الشاعر فيرجيل الكثير من الشهرة والذووع. كنا أنه ليس لدينا كذلك متسع لكي نتتبع مراحل نموها السريع في القرون الثلاثة التالية حتى أصبحت سيدة الإمبراطورية المزدهرة الفسيحة الأرجاء. وأصبحت ممتلكاتها الإقليمية تضم جزءاً من تونس بالإضافة إلى القبائل الليبية المجاورة على أنهم إما رعايا وإما حلفاء. أصهروا في القرطاجنيين وأصهر القرطاجنيون إليهم، ومنهم كانوا يجندون الجنود المرتزقة لجيوشهم. أما بقية بلاد المغرب - أسبانيا الجنوبية وسرديتيا وكورسيكا. وبصفة خاصة جزيرة صقلية - فقد كانت جميعها تضم سلسلة من المستعمرات والمراكز التجارية القرطاجنية، وتحولت المنطقة الغربية من حوض البحر الأبيض إلى مكان يعمل القرطاجنيون على احتكار تجارته والمحافظة عليه في غير شديدة، ولذلك أبعادوا

عنها كل العناصر الأجنبية المتنافسة. وتوضح المعاهدات التي لا تزال موجودة حتى الآن أنه حتى الرومان الذين كانوا حلفاء للقرطاجيين قد أبعدوا كذلك عن هذه المنطقة الغربية القرطاجية، إلا أن هؤلاء القرطاجيين دخلوا في سلسلة من الحروب الطويلة مع الإغريق، خاصة حول جزيرة صقلية، وأقام هذا الشعب الإغريقي - وهو أعظم متنافس للقرطاجيين - مجموعة من المستعمرات المزدهرة في سيرينايا منذ القرن السابع قبل الميلاد، حيث استغلوا الثروة الزراعية للمنطقة ونشروا النظم السياسية والفكرية التي كانت تميز نظام الدولة في المدن الإغريقية City-States نشرها بين الليبيين الذين كانوا يعيشون في المناطق المجاورة، ولكنهم حين حاولوا في القرن السادس قبل الميلاد أن يتوسعوا ناحية الغرب في المنطقة التي تسمى اليوم طرابلس وقف لهم القرطاجيون بالمرصاد حتى أبعدوهم عنها. فقد كانت التجارة هي العمود الفقري للدولة القرطاجية، ويفسر لنا الريح الوفير الذي كان القرطاجيون يحصلون عليه من أسواقهم الغربية السر في إبعادهم كل أجنبي عن منطقة الغرب، بل وعزلهم هذه المنطقة الغربية من حوض البحر الأبيض عن هؤلاء الأجانب تماماً. وكانت السلع الرئيسية في هذه المنطقة تشمل الأقمشة المنسوجة والصبغة الأرجوانية والفخار والأواني الزجاجية والعاج والأحجار الثمينة مثل الياقوت ... وقد وصف لنا المؤرخ اليوناني هيرودوت في عبارات واضحة عملية المبادلة الصامتة في الذهب وهي العملية التي كان يمارسها القرطاجيون مع سكان غرب الساحل الوطنيين، إذ يقول:

"يخبرنا القرطاجيون كذلك أنهم يتاجرون مع أحد العناصر التي تعيش

في أحد أجزاء ليبيا في المنطقة الواقعة خلف أعمدة هرقل⁽³⁾ وحين كانوا يصلون إلى هذه المنطقة كانوا يفرغون بضائعهم، ويرتبونها في نظام بديع دقيق على الشاطئ ثم ينسحبون إلى قواربهم ويحدثون في الجو دخاناً، حتى إذا ما رأى السكان الوطنيون هذا الدخان ينزلون إلى الشاطئ ويضعون على الأرض كمية معينة من الذهب مقابل البضائع الموجودة ثم يذهبون مرة أخرى إلى مسافة ما. وعندئذ يصعد القرطاجنيون إلى الشاطئ ويلقون نظرة على الذهب فإذا رأوا أنه يمثل ثمناً مناسباً لبضائعهم جمعوه وذهبوا به، أما إذا رأوه قليلاً جداً عادوا مرة ثانية إلى قواربهم وانتظروا. ويأتي السكان الوطنيون ويضيفون كميات أخرى إلى الذهب حتى يصبح ثمناً مرضياً. وتوجد أمانة تامة لدى كل من الجانبين، فالقرطاجنيون لا يلمسون الذهب مطلقاً حتى يصبح ثمناً مناسباً في قيمته لما قدموه من بضائع. وكذلك أهل البلاد الوطنيون لا يلمسون البضائع حتى يأخذ القرطاجنيون الذهب".

ويخبرنا هذا المؤرخ أيضاً - هيرودوت - أن البحارة الإغريق قد طافوا حول أفريقيا بطريق البحر بناء على أوامر فرعون مصر "نخو" Necho في القرن السادس قبل الميلاد، إلا أن المصدر الحقيقي الوحيد الذي نستطيع أن نحصل منه على معلومات من المغامرات البحرية التي قام بها الإغريق هو ما يسمى: "قصة رحلات هانوا حول البحر" وهو وصف لرحلة على طول ساحل غرب أفريقيا يرجع تاريخها إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وعلى الرغم من أن الحدود التي وصلت إليها هذه الحملة لا تزال موضع جدل بين الباحثين، فإن الرأي القائل بأن هانوا قد وصل إلى نقطة ما على ساحل

(3) أعمدة هرقل: صخرتان كانتا على جانبي بوغاز جبل طارق (المترجم).

غينيا، هذا الرأي لا يبدو أنه غير معقول بل له ما يبرره. أما إلى أي مدى تغلغل هؤلاء التجار الجسورون إلى الجنوب عبر الصحراء الكبرى من مدنهم الواقعة على ساحل سرتة Syrtic coasts فهذا ما يزال أيضاً لغزاً وسراً مجهولاً دفع البعض إلى أن يرى أن هناك تأثيراً قرطاجنيا في حضارة أفريقيا الغربية وتقدمها، ألا أن هذا لم يكن سوى مجرد حدس وخيال.

وقد كان توسع روما خلال القرن الثالث وامتدادها إلى دولة من دول البحر الأبيض سبباً طبيعياً دفعها إلى أن تدخل في صدام مع قرطاجنة سرعان ما أدى إلى ظهور حروب كانت كفاحاً من أجل الحياة أو الموت وهي الحروب التي خلقت أسماء عظيمة من أمثال هامليكار برقة وهانيبال من معسكر القرطاجنيين وسيبيو أفريكانسن من معسكر الروم وحين دمر الرومان في النهاية قرطاجنة عام 146 ق.م وأبادوها وحكموا على موقعها باللعنة الأبدية بدت هذه المدينة بشعبها بعد وجود أستمرة طيلة سبعة قرون كما لو كانت قد محيت تماماً من على سطح الأرض غير أن البقاء الذي استمرت عليه الحضارة القرطاجنية بعد سقوط المدينة واستمرار هذه الحضارة أيضاً إلى أبعد من هذا في السنوات التالية من حكم الإمبراطورية الرومانية هذا البقاء أو هذا الاستمرار يعتبر واحداً من أهم ملامح معالم تاريخ شمال أفريقيا. ولا يصح أن نندهش حين يذكر إنسان أنه لم يحدث أن شاركت كل المدن القرطاجنية مدينة قرطاجنة في مصيرها، فقد أبقى على بعض هذه المدن مثل أوتيكا، ومنها آي ومن هذه المدن التي تركت دون إبادة أو تدمير استمرت الحياة والأساليب القرطاجنية تزدهر وتترعرع. ولكن الورثة الأساسيين لهذه الحضارة كانوا يتمثلون في شعب ممالك البربر

الذين تأثروا بهذه الحضارة عن طريق العلاقات المختلفة. علاقات المصاهرة والتحالف مع القرطاجنيين، كما أن الهيئة الرومانية الحاكمة أهدت المكتبات القرطاجنية إلى عدد كبير من الأمراء الأفريقيين، ويقال: أن جوبا ملك موريتانيا كان يتمتع بصيت واسع المدى نظراً لبراعته في معرفة محتويات الكتب القرطاجنية ويذكر القديس أوغسطين عدداً من الكتب القرطاجنية التي كانت موجودة في عصره وهي الكتب التي تزخر بالكثير من الحكم التي دونت فيها، وقد أحدثت الاتجاهات الفكرية القرطاجنية خاصة ما يتصل منها بالطقوس الدينية، أحدثت أثراً لا يمكن أن يحى على شعوب البربر. فقد أكدت الآثار التي كشفت عنها حديثاً في المقابر القرطاجنية أن هذا الدين القرطاجني كان ذا طبيعة قائمة، وأن هؤلاء القرطاجنيين كانوا يلجئون إلى التضحية بالمخلوقات البشرية، وأكد اكتشاف بقايا جثث أطفال عديدين في أحد المعابد القرطاجنية صحة ما جاء في قصص الكتاب الإغريق والرومان من أن القرطاجنيين كانوا يقدمون أطفالهم إلى الإله مولك Molok⁽⁴⁾. ولو صدقنا ما جاء على لسان تيرتيولين لكان معنى ذلك أن هذه الشعيرة الدينية قد ظلت قائمة في القرن الأول بعد الميلاد حتى قضى عليها الأمراء الرومانيون.

ولعل الآثار المادية التي خلفتها قرطاجنة هي التي كانت سبباً في سوء سمعتها، فمعظمها ليس فيه من الروعة شيء. وحتى الآثار الفنية التي يرجع تاريخها إلى العهد القرطاجني الحقيقي والتي عثر عليها في مقابرهم مثل المصابيح والأوسمة وتمائيل رءوس الإلهة والإلهات، هذه الآثار الفنية معظمها

⁽⁴⁾ تنطق مولك molok وهو اسم لأحد الآلهة الساميين الذي كان أتباعه يذبحون أطفالهم ضحية له وتقرباً إليه (المترجم).

مستورد من بلاد الإغريق أو من البلاد الشرقية، أو أنه نسخ ممسوخة مشوهة لها، وهذا ما يبرر الحكم القاسي الذي أدانت به مدينة قرطاجنة، وهي "أن المال في هذه المدينة كان أول ما يشغل أهلها بينما يأتي الفن والأدب في مؤخرة اهتمامهم، ولذلك فليس ثمة شك في أن التقاليد الفنية والحضارية الرائعة الضخمة وأعني بها التقاليد الوطنية في نوميديا وموريتانيا قد ازدهرت بعد سقوط قرطاجنة واستوحت إلهاماتها من المزيج الذي انصهرت فيه كل من العناصر القرطاجنية والليبية. وتتمثل نماذج هذا الفن في المقابر الأثرية الرائعة في شمال جبال أيوريس وغرب مدينة الجزائر وفي الروائع الأخرى مثل أسود مكنار الجنائزية التي أقيمت في المناطق البعيدة المعزولة.

وبقيام الإمبراطورية الرومانية على طول ساحل شمال أفريقيا دخلت هذه المنطقة بشعوبها في علاقات سياسية واقتصادية وثقافية وثيقة من المدينة الإمبراطورية، وأصبح المغرب بمثابة مزرعة أو مخزن غلال تابع لروما، فقط كان الحكم الروماني يهتم في المكان الأول باستغلال المحاصيل الزراعية للمنطقة الساحلية التي كانت تتميز بصلاحياتها للزراعة، وازدادت كمية الإنتاج من القمح والزيتون والكروم وغيرها من الفواكه الأخرى التي طورها القرطاجنيون وكان يتولى تصديرها إلى ممالكهم جماعة النوميديين، ولا تزال الآثار التي عثر عليها في مختلف مناطق شمال أفريقيا مثل معاصر الزيتون والمزارع ذات الحصون وقناطر المياه لا تزال كل هذه الآثار وغيرها تدل دلالة واضحة على ما بلغته هذه المنطقة من مجد وتقدم، وفي فترة القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد كان يسير جنباً إلى جنب مع هذا النجاح المتزايد تقدم آخر مماثل في حياة المدينة والقرية من حيث نظم الحكم والإدارة،

وهذا النجاح أوضح ما يكون وجوداً أثناء حكم أباطرة أسرة سيفيران Severan dynasty وهي الأسرة التي ينتمي أعضاؤها إلى أصل من شمال أفريقيا. فإن أجمل المباني في مختلف منطقة شمال أفريقية ... في ليبتز، وسابراثا. وتيمجاد وغيرها من المناطق الواقعة في الغرب (أي في المنطقة القريبة من شمال أفريقيا) وكذلك المراكز الإغريقية الرومانية في الشرق كل هذه المباني يرجع تاريخها إلى هذه الفترة التي تتسم بما كان فيها من عظمة أمبيرالية وامتياز في نظم المجالس البلدية، وتوضح النقوش والشواهد الأثرية القديمة الأخرى أن عملية التحول إلى كل ما يمت إلى النظم الرومانية بصلة قد امتدت إلى كثير من سكان القرى الوطنيين حتى أصبح الكثير من هذه القرى يأخذ وضع المستعمرات الرومانية وأصبح سكانها مواطنين رومانيين.

إلا أنه على الرغم من أن نظم القضاء والتشريع الروماني قد كانت سائدة ومنتشرة على طول منطقة شمال أفريقيا كلها، فإن الرومان لم ينجحوا قط في أن يمدوا نفوذهم وسلطانهم إلى منطقة قلب الصحراء، ونظراً لعدم وجود حواجز طبيعية على طول الحدود الجنوبية لأفريقيا الشمالية في عهد الرومان فإن تقدم الأقاليم وتوسعها كان موضع تهديد دائم من جانب المغيرين من أبناء الصحراء الذين كانوا يقومون في كل وقت بشن غاراتهم وهجماتهم من أمثال الجارامنتيين Garamantes والجيتيلي Gaetuli الذين كانوا يطمعون في ثروات الساحل، ومن ثم كانوا يعارضون بطبيعة الحال فرض أية حدود أو قيود على حريتهم في التحركات أو حقوقهم في الوعي. وأصبحت هذه المسألة تمثل مشكلة عسكرية رئيسية أمام الاحتلال الروماني في أفريقيا. وكان رد الرومان على هذه الإغارات

التي كانت تقوم بها القبائل الليبية التي تعيش في الداخل، كان ردهم على هذا هو بناء حدود دفاع صناعية تتكون من سلسلة من الثكنات المحصنة التي أقيمت عند مواقع تم اختيارها اختياراً جيداً، وكان يقوم بالحراسة فيها جنود من الفلاحين الذين كان ينتمي معظمهم إلى أرومة محلية. على أن هذه الحدود قد قامت بوظيفتين في وقت واحد، فقد أدت دورها على أنها حد دفاعي في الوقت الذي كانت تشكل فيه أيضاً خط حدود أو تقسيم بين الأراضي الزراعية ودولة الصحراء. وقد كان على الرومان في كثير من الأحيان أن يقوموا بإرسال حملات إلى قلب الصحراء، وتعتبر حملات كورنيليس بالبوس Cornelius Balbus في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وحملات كل من سيبتميس فلاكوس Septimius Flaccus وجيوليوس ماتيرنس Julius Maternus بعد ذلك بحوالي نصف قرن تقريباً تعتبر هذه الحملات من أشهر الحملات الرومانية التي اتجهت إلى داخل الصحراء وربما وصل تغلغل ماتيرنس إلى واحة أزيين أو تيبسيني في منتصف الطريق عبر الصحراء الكبرى. ولعل هذه الحملات لم تكن كلها من نوع الحملات التأديبية، فإن عمليات الحفر والتنقيب التي قام بها علماء الآثار الإيطاليون قد أوضحت أن البضائع التجارية الرومانية مثل الزجاج، والفخار والمصابيح والأقمشة الصوفية الملونة والقوالب الأرجوانية قد وجدت طريقها إلى فزان بكميات ضخمة، وقد تكون هذه الحملات قد خلقت فرصاً مواتية لتغلغل سلمى امتد إلى داخل الصحراء.

وكالما كان نظام الحدود الدفاعية يؤدي على الوجه الأكمل وكانت إدارة الإقليم تتم في مقدرة وكفاية فإن التوازن كان يقوم بين البدو خارج

الحدود وبين الفلاحين المستقرين في داخل الإقليم، ولكن حدث ابتداء من منتصف القرن الرابع بعد الميلاد حين مزقت الخلافات الدينية وأعمال الاضطهاد والإضرابات الأقاليم الرومانية، وكذلك حين ضعفت الحكومات المنظمة حدث أن تعددت الإغارات والهجمات التي كان يقوم بها بدو الصحراء على نحو أكثر خطورة وجدية، وقامت جماعات الماذاي Mazices والأستورييني Austuriani الذين كانوا مزودين في ذلك بالجمال ومن ثم كانوا أقدر على التحرك على مستوى أعلى، قاموا بالهجوم على طرابلس وغيرها واستولوا على كثير مما كان فيها، وقد ساعدت هذه الهجمات على إفساح الطريق أمام الفندال للاستيلاء على الأقاليم الرومانية في عام 439 بعد الميلاد كما استمرت هذه الهجمات أيضاً أثناء العهد الفندالي، إلى أن حلت محلها هجمات كانت أكثر منها عنفاً وقسوة وهي الهجمات التي قام بها الليواثي Leuathae وهي الجماعة التي ركزت اتجاهها أساساً على الأقاليم الغربية ثم جاء البيزنطيون فأعادوا في القرن السادس فتح هذه المنطقة، وبذلك أعادوا التوازن بصفة مؤقتة فيها وأعطوا للأقاليم المنهكة فرصة لبعض الراحة وتنفس الصعداء، غير أن قوة الحركة بالنسبة للحكم الروماني قد توقفت وظهر الفاتحون العرب على المسرح في القرن السابع الميلادي فاستسلمت هذه المنطقة لهم.

مملكة أكسوم

ج. و. ب. هنتنغفورد

G. W. B. Huntingford

هناك على مقربة من الطرف الجنوبي للبحر الأحمر تقف بلاد اليمن التي تقع في جنوب غرب الجزيرة العربية في مواجهة الهضبة المرتفعة القائمة على المنطقة الرئيسية من أفريقيا والتي تسمى الآن أثيوبيا. ويفصل هذه الهضبة على البحر الأحمر شريط من الأراضي الصحراوية الواطئة المحرقة التي تقع أجزاء منها تحت مستوى البحر، ومع هذا فلم يكن لهذه المنطقة في العصور القديمة سوى ميناء واحد يمكن الاتصال بهذه المنطقة عن طريقه، وأعني به ميناء أدولس Adulis زولا: Zula وهو مكان قريب من مصوع Massawa الحديثة. ولم يكن من الممكن الوصول إلى الجهات الأخرى من الحبشة إلا بواسطة الرحلات البرية الشاقة جداً، ولذلك كان الاتصال بهذه البلاد في العالم القديم من أكثر الأمور صعوبة، بل الواقع أنها ظلت منعزلة عن العالم حتى العصور الحديثة.

وفي تاريخ يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد بدأت موجات الهجرة من بين الشعوب السامية التي كانت تسكن اليمن والتي كانت في ذلك الوقت على مستوى نسبي من الحضارة، بدأت هذه الموجات المهاجرة

تستقر في المناطق المرتفعة من الحبشة حيث يبدو أنهم أقاموا قبل الميلاد بقرنين أو ثلاثة قرون مركزاً لهم في المكان الذي يسمى أكسوم، ومن هذا المركز الأول تطورت مملكة أثيوبيا. ووضح جداً أن الأسباب التي دفعت هؤلاء المهاجرين إلى الاستقرار في المناطق التي ذهبوا إليها كانت من أجل التجارة، لأن الوثيقة الإغريقية التي يرجع تاريخها إلى القرن الأول بعد الميلاد وهي الكتاب الذي يسمى "رحلات حول البحر الأريتري" periplus of Erythraean Sea يحدثنا أن حاضرة الأكسوميين أو عاصمتهم التجارية Metropolis كانت مركز التجميع للعاج الذي كان يأتي من أفريقيا الداخلية نظراً لوقوعه على إحدى الطرق التي تبدأ من الساحل عند أدولس وتصل إلى الداخل. وقد وجد هؤلاء الساميون الذين وفدوا من اليمن حين جاءوا إلى هذه البلاد وجدوا فيها شعباً من أصل حامي يسكنها كما وجدوا في المناطق المنخفضة الحارة جماعة من الرعاة البدو، أما المناطق المرتفعة التي كانت أكثر برودة فقد كانت تسكنها شعوب تشتغل بالزراعة.

وقد نشر هؤلاء القادمون الجدد، الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم "حبشات" (الكلمة التي جاء منها قطعاً اسم الحبشة) نشروا في هذه البلاد لغتهم "الأثيوبية" أو "الجبز" Ge'ez كما هو اسمها الصحيح، ومع أن هذه اللغة لم تعد لغة الحديث اليوم إلا أنها اللغة التي لا تزال تستعمل في الكنائس والكتابات الأدبية كما كانت اللاتينية في أوروبا.

وأثناء الفترة الأولى من حياة المملكة الأكسومية، وابتداءً - على الأقل - من النصف الأول للقرن الثالث قبل الميلاد كان هناك نشاط

واسع ملحوظ من جانب البطالمة في مصر، نشاط على طول الساحل الأفريقي للبحر الأحمر حيث كانوا يقومون بصيد الأفيال وجمعها لاستخدامها في الحروب، وقد كان يقوم بمعظم هذه العملية أناس من الإغريق الذين سجلت النقوش الإغريقية كثيراً من أسمائهم. ومع أن هذا النشاط التجاري الذي كان يقوم به البطالمة لم يحدث نفوذاً أو تأثيراً كبيراً على تطوير أو على الشؤون الداخلية لمملكة أكسوم - كما يبدو - إلا أنه قد أدى إلى إدخال اللغة الإغريقية إلى هذه المنطقة على أنها لغة التجارة والدبلوماسية وليس من شك في أن هذه اللغة الإغريقية كانت تستخدم "وإن كان ذلك في اقتصاد" في السجلات الرسمية حتى القرن الرابع الميلادي على الأقل.

ولم يقنع حكام أكسوم بمملكتهم الجديدة في أفريقيا فقاموا في فترة مبكرة بعدة محاولات لاستعادة سلطانهم على موطنهم الأصلي الأول. وقد وجدوا لأنفسهم مكاناً في المنطقة الغربية من اليمن حين عقدوا محالفات مع القبائل المحلية المختلفة هناك لمحاولة استعادة نفوذه في الجزيرة العربية. ولعل هذه المحاولات قد ظلت قائمة وإن لم يكن ذلك على نحو دائم لفترة طويلة من الزمن لأننا نعثر على شواهد أخرى يرجع تاريخها إلى بداية ومنتصف القرن الثالث الميلادي تمثل غزواً قام به هؤلاء الأكسوميون على ساحل الجزيرة العربية. وفي حوالي نهاية هذا القرن نفسه غزا ملك أكسوم المدعو "أفيلاس" الجزيرة العربية لأن اعتداء قد وقع هناك على ممتلكاته وإلى هذا الملك الذي غير الكتاب العرب اسمه في قصصهم الشعبي من "أفيلاس" إلى "الفيل" ترجع مسئوليته إشعال ما يسمى بحرب الفيل التي ذكرت في القرآن.

ويدعى ملوك أثيوبيا أنهم سلالة سليمان عن طريق ابنة مينيليك⁽⁵⁾ من ملكة سبأ Sheba وهو الذي نقل لولتي الشهادة Ark of the low من القدس إلى أكسوم. وهناك وصف تفصيلي لهذا الحادث نجده في الأدب الأثيوبي. غير أن الحادث بكل ما يحويه من تفاصيل ليس سوى أسطورة بحثة وقصة نسجها الخيال.

ومع هذا فإن ملوك الحبشة يعتقدون اعتقاداً جازماً بأنهم أنفسهم من سلالة سليمان، ويشار إليهم على أنهم إسرائيليون ولكن الأكسوميين كانوا لا يزالون حتى القرن الرابع بعد الميلاد على الوثنية، ولم يكن إله إسرائيل هو إلههم الذي يعبدونه، بل كانوا يعبدون آلهة منطقة جنوبي الجزيرة العربية .. حتى إذا كان عام 333 بعد الميلاد قام رجل سوري يدعى فرومينتيوس Frumentius بإدخال الديانة المسيحية إلى مملكة أكسوم وطبقاً للأخبار المتواترة، وكذلك طبقاً لما يقول به مؤرخو الإغريق واللاتين، قام فرومينتيوس بعد أن أدخل الدين الجديد إلى أثيوبيا بزيارة القديس أثناسيوس Athanasius بطريك الإسكندرية الشهير حيث عمده هذا القديس رئيساً للكنيسة الأثيوبية الجديدة. ولذلك أصبحت طقوس كنيسة الإسكندرية وعقائدها هي نفس الطقوس والعقائد التي كانت تطبعها كنيسة أثيوبيا، ولا تزال تطبقها منذ ذلك الحين حتى الآن. ولهذا السبب نفسه يطلق على الكنيسة الأثيوبية في كثير من الأحيان اسم "الكنيسة القبطية" وقد كان ملك أكسوم الذي تحول إلى المسيحية على يد فرومينتيوس

(⁵) Ark of the low يقصد بها في التاريخ اليهودي الصندوق الخشبي الذي كان يحفظ فيه لوحا الشهادة Tables of the low أو ناموس موسى (المترجم).

يسمى عزانا Ezana وهو الذي جعل من المسيحية بعد أن اعتنقها الدين الرسمي لمملكته. واستمر هذا الدين حتى يومنا هذا يمثل قوة ذات سلطة كبيرة في كل أرجاء أثيوبيا، بل أنه الدين الذي ينفذ إلى كل مجالات الحياة الأثيوبية.

ويظهر تأثير الدين الجديد بصورة ملفتة للنظر في هذه النقوش التي تسمى نقوش عزانا المسيحية، فإن هذا الملك قبل أن يتحول إلى المسيحية كان يبدأ بياناته الرسمية (وكانت تنقش على الحجر) بهذا الأسلوب التقليدي "ملك أكسوم وحمير وكيسو وصابا ورايدين، ملك الملوك، وابن مارس إله الحرب الذي لا يقهر" أما بعد أن يدخل المسيحية فإن تغييراً سريعاً يحدث فتصبح عبارة الافتتاح على هذا النحو.

"بعون سيد السماء والأرض ... نحن عزانا ملك أكسوم الخ"

كما نجد إشارات أكثر إلى "سيد السماء" وإلى "سيد المجتمع" ويدل هذا التغيير في الأسلوب على مظهرين هامين: أولهما الدلالة الواضحة على إلغاء الوثنية الدينية، وثانيهما أن الإبقاء على سلسلة الألقاب لم يصبح له مدلول سياسي دقيق بل لم يكن سوى مجرد إبقاء على تقاليد من تقاليد القرن السابق. فليس ثمة دليل على أن هناك أية محاولة قد قام بها ملوك أكسوم بعد عصر أفيلاس حتى القرن السادس للهجوم على اليمن، وليس في نقوش أزان، أيضاً أية إشارة بالمرّة إلى أي نشاط لأكسوم هناك، ومعنى ذلك أن نفوذ مملكة أكسوم وسيطرتها قد توقف تماماً عند حدودها، وليس في بقاء الألقاب التقليدية التي احتفظ بها ملوك أكسوم سوى تذكرة لهم بممتلكاتهم التي فقدوها.

ومن ناحية أخرى تسجل كل نقوش عزانا الحروب التي قامت بها أكسوم في أفريقيا، وقد كتبت هذه السجلات باللغة الأثيوبية، وهي وصف لحركة إخماد الثورات التي اشتعلت في كل من شمال وجنوبي أكسوم، كما أنها تتضمن كذلك ذكراً لمملكة مروى التي تجاور أكسوم من ناحية الغرب، والتي تقع بين نهر عطبرة والنيل الأزرق، والمعروف أن مملكة مروى هذه قد أصبحت مملكة مستقلة ذات طابع أفريقي بعد أن كانت إقليمياً من الأقاليم التابعة لمصر، وفي هذه النقوش المسيحية يوجد وصف تفصيلي مطول لإحدى الحملات التي قامت بها أكسوم في السودان، ونص هذا الوصف كما جاء في هذه النقوش المسيحية بعد حذف التفاصيل التي لا محل لها هنا والتي وضعنا مكانها نقطاً لا تعني وجود فجوات فيه - كما - قد يفهم القارئ - نص هذا الوصف يقول:

"بعون سيد السماء، الذي يقهر الجميع في السماء والأرض، نحن عزاننا بن اللامبيده، عضو (جماعة) هالين، ملك أكسوم وحمير وديدان وصاباه وصالحين وتسيامو البجة وكاسو، ملك الملوك ... الذي لم يقهره عدو من أعدائه ... بقوة سيد الجميع أعلنت الحرب على النوبة. شرعت بقوة سيد الأرض وحاربت في تاكازي وبعد أن خضت نهر كيماكي ... حرقت مدنهم، والتي كان بعضها يتكون من المنازل الحجرية، وبعضها الآخر يتكون من أكواخ القش، وقد نهبت "جيوشي" ما كان عندهم من قمح وبرونز وحديد ونحاس، وحطمت ما كان في بيوتهم "معابدهم" من تماثيل كما حطمت كذلك ما عندهم من مخازن القمح والقطن، وألقت بكل ذلك إلى أعماق نهر سيده ... ووصلت إلى الكاسو، هؤلاء الذين

حاربتهم وأوقعتهم أسرى عند نقطة التقاء نهري سيده وتاكازي. وفي اليوم التالي بعثت بجيوشي .. في حملة أعلى نهر سيده إلى المدن المبنية من الحجارة والقش، وأسماء المدن المبنية من الحجارة هي علوه ودارو ... ثم بعثت جيوشي بعد ذلك ... أسفل نهر سيده إلى قرى النوبة الأربع المبنية من القش والي الملك. أما مدن الكاسو المبنية من الحجر والتي أخذتها مملكة النوبة فقط كانت "تابيتو، وفرتوتي وسارت جيوشي إلى مسافة بعد النوبة الحمراء ...

ومن هذا النص يمكن أن نفهم أن الملك عزانا قد وصل إلى نهر تاكازي. وهو النهر الذي أصبح يعرف باسم نهر عطيرة والذي يتصل بالنيل الأزرق، وأن نهر سيده Seda قريب من عطيرة، وأنه كان يوجد في جزيرة مروى شعب الكاسو Kasu شعب "كوش" وربما كانت علوة Alwa التي تقع عند أعالي النهر من عطيرة هي مروى نفسها (شندي) ولو أن مكانها عند السوبا Soba على بعد اثني عشر ميلاً جنوبي الخرطوم ولعل دارو Daro هي دارون Daron التي ذكرها بطليموس الجغرافي، - ولعلها أرباغي Arbagi التي تقع على بعد ثمانين ميلاً جنوب شرقي مملكة مروى. أما نابيتو فهي غير فيرتوتي.

وهذه الحملة التي تضمنها النص هي في الواقع الحملة التي أكمل فيها الملك عزانا تحطيم مروى كما تعتبر كذلك قمة سلسلة الهجمات التي قام بها أجداد هذا الملك على مروى من قبل، ولقد ترك أحد أجداد هذا الملك - وقد فقد اسمه مع الأسف من السجل - ترك نقشاً باللغة الإغريقية في مدينة مروى نفسها يسجل فيه ما يفيد استيلاءه على المكان.

ومن المسائل التي تدعو إلى شيء من الدهشة والملاحظة، أن مملكة أكسوم وهي تقع بين منطقة نفوذ البطامة في الشرق ومملكة مروى في الغرب، لم تأخذ شيئاً من هذه الحضارات الأجنبية عليها سوى استخدام اللغة الإغريقية في سجلاتها الرسمية. فحضارة أثيوبيا كانت في أولها حضارة جنوبي شبه الجزيرة العربية ثم نمت في جو أثيوبي محلي خالص. ولذلك ترى الأسلوب المعماري في مبانيها - كما يمكن أن نراه في أكسوم وفي غيرها - يتميز باستعمال الحوائط المتدرجة، والمسلات العملاقة التي حفر في كتل واحدة من الحجر على شكل قلاع كثيرة الطبقات Many-storeyed castles والتي يصل ارتفاع إحداها إلى ستين قدماً، ثم العروش الملكية المبنية من الحجر وكذلك القصور المعدة للقتال. كذلك ترى أن الهندسة المعمارية في الكنائس ذات طابع خاص تتميز أثيوبيا به.

وفي القرن السادس الميلادي - قبل ظهور الإسلام طبعاً - بدأ سكان اليمن يضطهدون العناصر المسيحية فيها، وفي حوالي عام 528 كان "كالب" Kaleb ملك أكسوم يحارب هناك واستطاع الأثيوبيون أن يفرضوا لأنفسهم سيطرة مؤقتة كانوا يمارسونها في اليمن عن طريق وكلائهم ومندوبيهم فيها، ولكن لم يمض إلا وقت قصير حتى طرد هؤلاء الأثيوبيون من هناك وانتهت سيطرتهم التي كانوا قد كسبوها من قبل وبذلك كانت هذه المغامرة آخر مغامرة للأثيوبيين في الجزيرة العربية. وخلال هذه الفترة قام أحد النواب والولاة الأثيوبيين المحليين في اليمن ويدعى إبرهة وقد كان عبداً سابقاً - قام بهجوم على مكة، وهو ما يسمى بحرب الفيل War of the Elephant التي ذكرناها آنفاً.

ثم يأتي بعد ذلك في تاريخ أثيوبيا عصور مظلمة لا تكاد تعرف عنها سوى أسماء ملوكها، ومع هذا يظهر في نهايتها شعاع من ضوء. ففي أوائل القرن العاشر الميلادي يظهر على المسرح شعب حامي يعرف باسم شعب الفالاشا Falasha بطرد الأسرة الحاكمة التي كانت تدعي أنها من سلالة سليمان ويتولى هو الحكم في أثيوبيا، إلا أن شعب الفالاشا بعد أن يستمر ثلاث سنوات يحكم فيها أثيوبيا حكماً سيئاً رهيباً ويقوم خلالها بأعمال تخريبية تدميرية ينهزم أمام أسرة حاكمة جديدة أخرى هي أسرة زاجيو Zague التي لم يكن أفرادها كما يقول المؤرخون من الإسرائيليين، وتكون نتيجة وجود هذه الأسرة في الحكم هو أن تهاجر الأسرة التي تدعي نسباً بسليمان، تهاجر إلى شوا Shoa في الجنوب، وتفقد أكرام طابعها كعاصمة سياسية وإن كانت قد ظلت مركزاً دينياً يتوج فيه الملوك. والواقع أن أثيوبيا لم تكن لها عاصمة دائمة وظلت كذلك حتى تاريخ ما في القرن السابع عشر. وقد ظلت أسرة زاجيو - التي لم تكن إسرائيلية - تحكم أثيوبيا 245 عاماً، إلا أنها سلمت مقاليد الحكم بعد ذلك مرة أخرى في عام 1268 إلى الأسرة السليمانية. ونقول القصة التي عثرنا عليها بهذا الخصوص أن السبب الرئيسي في عودة هذه الأسرة إلى الحكم يرجع إلى تدخل القديس الأثيوبي العظيم تكلا هايمانوت Takla Haymanot الذي استطاع بفضل قدراته الرهبانية وحنكته السياسية - دون اللجوء إلى أي نوع من أنواع الحروب - أن يحقق نتيجة ربما لم يحدث لها نظير في أي مكان آخر من العالم.

وينبغي أن نذكر هنا أن أحد ملوك أسرة زاجيو ويدعى الملك لاليبالا

Lalibala هو الذي يرجع إليه الفضل في إقامة عدد من الكنائس المحفورة في الصخور في أحد مناطق أثيوبيا الوسطى وهي الكنائس التي لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم. وتعتبر هذه الكنائس من حيث تصميمها فريدة في نوعها، فقد كان يتم بناؤها على النحو التالي:

تعزل كتلة الصخر داخل خندق لتشكل فناء الكنيسة ثم تنحت الصخرة على شكل كنيسة مبنية بكل تفاصيلها المعمارية على أن يصل سقفها إلى مستوى الأرض الأصلية.

وتقول القصة التقليدية المنقولة التي تحكي أخبار بناء هذه الكنائس - وهي قصة أشبه بالأسطورة - أن الملائكة كانت تساعد البنائين في عملية البناء، فقد كانت تساعدهم في عملهم أثناء النهار، حتى إذا جاء الليل قامت الملائكة وحدها بالعمل في بناء هذه الكنائس، وتقول القصة أو الأسطورة بعبارة أصح - وكانت الملائكة تنجز من العمل في الليل ثلاثة أضعاف ما يتم انجازه أثناء النهار.

العرب المسلمون في أفريقيا

برنارد لويس

Bernard Lewis

غزا العرب منطقة شمالي أفريقيا مرتين، كانت أولهما في القرن السابع الميلادي. وكانت ثانيتهما في القرن الحادي عشر. وكانت كل منهما تختلف عن الأخرى من حيث الظروف التي مهدت لها النتائج الطويلة الأمد التي حققتها. واستطاع العرب خلال الفترة التي امتدت بين هذين الحادثين أن يحولوا أفريقيا البحر الأبيض المتوسط إلى دولة إسلامية تتحدث شعوبها اللغة العربية، كما استطاعوا كذلك أن يهدوا الطريق أمام حركة انتشار الإسلام نحو الجنوب إلى الصحراء، وإلى أبعد من هذا حيث أعماق أفريقيا الاستوائية، أحياناً عن طريق التجارة، وأحياناً أخرى عن طريق الحرب وأحياناً كثيرة بفضل تغلغلهم السلمي.

ففي السنوات الأولى من القرن السابع الميلادي ظهر في الجزيرة العربية دين جديد هو الإسلام. وسرعان ما تشكلت بين العرب بفضل دعوة النبي محمد (عليه السلام) وجهوده جماعة إسلامية ودولة إسلامية، ولم يكد يمضي إلا وقت قصير بعد وفاة النبي حتى كانت كل من هذه الجماعة والدولة على أتم الاستعداد للتوسع إلى داخل العالم الذي كان يحيط بالجزيرة العربية، ففي عام 639 ظهر المسلمون العرب الذين كانوا قد

فتحوا سوريا وفلسطين - على الحدود الشرقية لمصر. ولم يأت عام 641 حتى كان هؤلاء العرب قد استولوا على مصر من أيدي البيزنطيين وتم توقيع معاهدة اندمجت مصر بمقتضاها في الإمبراطورية العربية. ولم تتوقف حركة الفتوح الإسلامية العربية العارمة التي كانت قد أقامت حتى ذلك الوقت للعرب المسلمين من أبناء شبه الجزيرة حكماً بسط نفوذهم على معظم المنطقة التي تسمى اليوم باسم منطقة الشرق الأوسط، فمن العراق كانت الجيوش الإسلامية تتقدم نحو الشرق عبر فارس إلى حدود الصين والهند، ومن مصر كانت الجيوش الإسلامية تتحرك نحو الغرب في اندفاعه فتح عارم، وصلت بها إلى الساحل الأطلسي لمراكش ثم عبر البحر إلى أسبانيا وصقلية، بل وحتى إلى فرنسا.

ولقد عبرت الجيوش العربية الأولى الصحراء الغربية من مصر إلى داخل شمالي أفريقيا في عام 647 ميلادية، أي بعد ست سنوات من فتحهم لمصر. ويبدو أن الحملات الأولى كانت مكونة من الجماعات القبلية التي دعمتها وحدات عسكرية منظمة من الجيش العربي في مصر، وبعد أن ضعفت قوة مقاومة البيزنطيين أمام الغزو العربي أخذ العرب يتوسعون في تنفيذ خططهم التي كانت تتسم بشيء كبير من الطموح.

على أن حركة الفتوح العربية الإسلامية في شمال أفريقيا ترتبط عادة باسم الجنرال الشهير عقبة بن نافع الذي كان قد عين قائداً للجيوش العربية في هذه المنطقة عام 663. وقد استطاع هذا الرجل أن يؤسس في عام 670 مدينة القيروان في تونس .. المدينة التي ظلت العاصمة الإدارية والعسكرية للعرب في شمال أفريقيا خلال فترة الفتوحات. فمن هذه المدينة

تمكن العرب من السيطرة على تونس، ثم مدوا نفوذهم ناحية الغرب إلى الجزائر ومراكش. وقد استغرق فتح العرب لشمالي أفريقيا أو بلاد المغرب "لوقوعها إلى الغرب كما كانوا يسمونها" وقتاً طويلاً ومجهوداً جباراً، فقد كانوا يصادفون في كل خطوة يتقدمونها كثيراً من الصعوبات، لا لمقاومة البيزنطيين لهم، فقد كانوا قد انزاحوا من المسرح أمام قسوة الزحف العربي، ولم تعد لهم قوة مقاومة تخشاهم الجيوش الإسلامية، ولكن هذه الصعوبات كانت تأتي من البربر سكان البلاد الأصليين. غير أن هؤلاء البربر بعد أن دخلوا الإسلام في أوائل القرن الثامن الميلادي انضموا إلى العرب في فتوحاتهم التي قاموا بها في أسبانيا. وعلى الرغم من أنهم قد ظلوا محتفظين بشيء من نظمهم الاجتماعية إلا أنهم لم يدخلوا في صراع مع إخوانهم في الدين من العرب.

وبدأ العرب بعد ذلك يتدفقون من الشرق في أعداد ضخمة هائلة. بل وكانت كل ثورة فاشلة يقوم بها البربر تؤدي دائماً إلى وجود المزيد من الإمدادات البشرية العربية. وكان هؤلاء القادمون الجدد إما من القبائل التي وفدت من الجزيرة العربية، وإما من الوحدات العسكرية التي ترسل من الجيوش العربية والجيوش المرابطة في كل من مصر وسوريا والشرق. وقد كان هؤلاء القادمون يستقرون في القيروان وفي غيرها من المدن الأخرى التي أصبح العرب يمثلون فيها معظم السكان والتي أصبحت تشكل مراكز صبغ أبناء شمالي أفريقيا بالروح العربية الإسلامية.

وكانت اللغة العربية لغة الحكومة والتجارة، وهذا ما أضفى عليها الأهمية والاحترام .. لا .. فإن هذا لم يكن كل ما في الأمر، فقد كانت

كذلك لغة الدين .. لغة القرآن .. الكتاب المقدس للدين الإسلامي الذي جاء به الفاتحون إلى أفريقيا، ومع انتشار الإسلام السريع في أفريقيا انتشرت لغة كتابهم وتعاليم دينهم، ولم يكن كل العرب الذين جاءوا إلى شمال أفريقيا من الجنود والإداريين بل كان بعضهم من رجال الدين الذين رحلوا إلى هذه المناطق ليشرحوا للبربر تعاليم الدين الجديد. وأخذ عدد هؤلاء الدعاة ابتداء من القرن الثامن فصاعداً يتزايد يوماً بعد آخر بشكل ملحوظ، كما أخذ نشاطهم يحرز نجاحاً واسعاً للغاية.

إن هناك عنصراً آخر بين هؤلاء القادمين من الشرق وأعني به عنصر التجار، بأن شمالي أفريقيا حيث الفترة الأولى من الحكم الإسلامي لم تكن في الواقع سوى ولاية تابعة للإمبراطورية العربية في الشرق نستطيع أن نتعرف فيها على النماذج المعروفة للجنود والإداريين ورجال الدين والتجار، ولقد وفد العنصر الأخير وأعني به التجار من سوريا والعراق وفي بعض الأحيان بأن يفد أيضاً من فارس ومنطقة آسيا الوسطى. وكانت التجارة التي يشتغلون بها تشمل كثيراً من السلع المختلفة، وتحدث بعض المصادر العربية الأولى في شيء من الإعجاب عن الغابات الواسعة لأشجار الزيتون التي كانت موجودة يومذاك في شمالي أفريقيا، كما يتحدث بعضها الآخر عن الجياد الأصيلة والإبل القوية في هذه المنطقة. وكان الذهب من أهم صادرات هذه البلاد إلى الشرق فقد كان يأتي من غربي أفريقيا وبالذات في مملكة غانا التي كانت تتبع عاصمتها يومذاك إلى الشمال من نهر النيجر، وكان التجار المسلمون الذين يفدون من بلاد ساحل البحر الأبيض المتوسط يسافرون عدة شهور لكي يصلوا إلى المراكز التجارية

الكبرى في الجنوب حيث يحضرون الذهب من هناك. ونستطيع أن نقف على شيء من معرفة مدى ما كانت عليه التجارة من ضخامة في هذه المراكز ما ذكره لنا الرحالة العربي الشهير ابن حوقل الذي زار أودغشت في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي. ويقول ابن حوقل فيما يقول عن هذه المدينة أنه قد رأى فيها بعينه "صكا" بمبلغ بنحو 41,000 دينار (قطعا ذهبية) مرسل إلى أحد التجار في مراكز الجنوبية.

واندفع التجار المسلمون ناحية الجنوب إلى غربي أفريقيا، ولم تأت الفترة الأولى من القرن الثامن الميلادي حتى كان هؤلاء التجار يسافرون فعلاً بل ويستقرون كذلك - إما على أنهم عملاء وإما على أنهم متسترون - في مراكز الأسواق التجارية التي تقع جنوبي الصحراء الكبرى، فكانت الدعوة الإسلامية تدخل إلى هذه المناطق في ركاب هؤلاء التجار العرب، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر هنا أن البربر بعد أن دخلوا الإسلام كانوا أنشط من العرب في نشر الدعوة الدينية في هذه المناطق.

ولقد كانت أفريقيا في أول الأمر تشكل المنطقة الغربية للعالم الإسلامي التي لم تقهر بعد، والتي يمثل الكفاح في سبيل فتحها بالنسبة للمسلمين جميعاً بديلاً من اثنين فإما الحصول على الغنيمة وإما الشهادة في سبيل الله أما بعد أن تم فتحها فقد أصبحت تمثل أرض الأمل والفرصة حيث يمكن لأي مسلم يشعر بالاضطهاد أو الحاجة أن يجد فيها المأوى والمهجر.

وفي القرن التاسع الميلادي أصبح المغرب من الغنى والتقدم بحيث

استطاع أن ينبذ سلطة المشرق عليه وأن يقيم دولاً إسلامية مستقلة. وظهرت الأسر العربية والبربرية الحاكمة في كل من مراكش وتونس وهي الأسر التي ظلت تعترف فقط بالسيادة الاسمية للخلافة المشرقية في الوقت الذي كانت تتمتع فيه باستقلال بلادها استقلالاً كاملاً.

وفي أوائل القرن العاشر الميلادي أقام الفاطميون - ولو أنهم أنفسهم كانوا من أصل شرقي - أقاموا في تونس إمبراطورية حقيقية في شمالي أفريقيا سرعان ما تمكنت من جمع شمالي أفريقيا وصقلية في دولة واحدة كما تمكنت في منتصف القرن نفسه من الزحف شرقاً لفتح مصر وسوريا وأجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية. وفي ذلك الوقت كان شمالي أفريقيا قد أصبح فعلاً دولة غنية وقوية فأخذ يتوسع عسكرياً وتجارياً إلى كل من عالمي أوروبا والشرق الأوسط. وكانت الخلافة الفاطمية حتى بعد انتقالها من تونس إلى مصر لا تزال دولة يسودها طابع شمالي أفريقيا، فالحاميات البربرية هي التي كانت تحرس القاهرة ودمشق، وفتوحاتها في المشرق وقد فتحت أمام تجار المغرب فرصة الاشتراك على نطاق واسع في التجارة أمام بلاد كل من آسيا الجنوبية والشرقية.

وقد شارك شاملي أفريقيا العالم الإسلامي - كمجموعة - في أزمته التي مر بها في القرن الحادي عشر الميلادي، ففي الشرق فتح الغزاة الأتراك الذين وفدوا من آسيا الوسطى، فتحوا قلب العالم الإسلامي وفرضوا سيادتهم التي استمرت لأكثر من ثمانية قرون. وفي أوروبا استولت القوى المسيحية مرة ثانية على كثير من أجزاء أسبانيا وصقلية، بل لم تكد تأتي الفترة الأخيرة من هذا القرن حتى استطاعت القوات الصليبية أن

تظهر على المسرح حتى في سوريا وفلسطين كذلك وقع في شمالي أفريقيا حادثان هامين فقد ظهرت بين مسلمي مراكش الجنوبية وحوض النيجر السنغالي حركة دينية جديدة حظيت بتأييد واسع بين كل من سكان المنطقة من البربر والزنوج. ثم قامت هذه الطوائف الدينية في عام 1054 بالهجوم على أودغشت التي كانت من ممتلكات دولة غانا في ذلك الوقت واستولت عليها وبعد ذلك بعشرين عاماً كانت هذه الطوائف تفتح مراكش وتستعد لخلق إمبراطورية بربرية عظيمة في أقصى الغرب تمتد في أسبانيا حتى السنغال.

ويحدث غزو آخر يختلف تماماً في طابعه عما سبقه .. غزو تقوم به قبائل بني هلال وبني سليم على كل من تونس والجزائر الشرقية، وهاتان القبيلتان من القبائل البدوية الكبيرة التي وفدت من شبه الجزيرة العربية واستقرت أولاً في العراق وسوريا، وكانت أعمال الإغارة والسلب التي تقوم بها هاتان القبيلتان سبباً في إحداث متاعب لحكام هذه البلاد فأبعدهم الفاطميون إلى مصر العليا (الصعيد) عام 978 ميلادية بعد أن يفشل هؤلاء البدو في ثوراتهم التي أشعلوها ضد الخلافة الفاطمية في الشمال الأفريقي. ومن مصر العليا بدأ أفراد هذه القبائل البدوية يتحركون في القرن الحادي عشر ناحية الغرب لفتح تونس، وتمكنوا في الفترة التي تقع ما بين عام 1056، 1057م من تخريب مدينة القيروان، العاصمة العربية القديمة وتسببت هذه الحركة التي قامت بها هذه القبائل وهي الحركة التي استمرت خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر، تسببت في نشر الدمار والخراب في كل منطقة شمالي أفريقيا، ويصف لنا ابن خلدون التونسي

الأصلي الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي والذي يمكن أن نعتبره أعظم مؤرخ عربي على وجه الإطلاق يصف لنا ما قام به الهلاليون وبنو سليم فيقول:-

"في تونس وفي الغرب منها حين عبرت قبائل هلال وسليم هذا الطريق في بداية القرن الخامس الهجري (منتصف الحادي عشر الميلادي) ودمرت هذه البلاد، تحولت كل سهولها فترة امتدت ثلاثمائة وخمسين عاماً إلى خرائب وأطلال - لقد كانت المنطقة التي تمتد من بلاد الزنوج حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط من قبل (أي من قبل أن يحدث غزو هلال وسليم) أرضاً زراعية صالحة كما تشهد بذلك تلك الآثار الباقية هناك من التماثيل والمباني والمزارع والقرى.

لقد تركت الغزوات الهلالية كلاً من ليبيا وتونس والجزائر الشرقية في حالة ضعف وفاق، ولكنها لم تستطع أن تؤثر على الجزائر الغربية ولا على مراكش .. هذه المنطقة التي أصبحت المركز الأساسي للإسلام في المغرب وفي ظل المرابطين وخلفائهم الموحيدين دخل الإسلام (المراكشي) مرحلة جديدة من النمو والتوسع كانت ذات أهمية قصوى في تاريخ كل منطقة شمال - غربي أفريقيا.

ممالك السودان الغربي

توماس هودكير

Thomas Hodgkin

السودان - ومعناها بلاد السود - هو الاسم الذي أطلقه العرب على الحزام الكبير لمنطقة السافانا الذي يمتد عبر أفريقيا من المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر. في شمالي هذه المنطقة تقع فيافي الصحراء الكبرى، بينما تقع الغابة الاستوائية في جنوبها. ويتدفق نهر النيجر في أغلب أجزائه خلال أرض السودان من الغرب فيمثل بهذا حلقة اتصال طبيعية بين الشعوب التي تعيش على طول امتداده، ولقد قامت في المنطقة دول زنجية كبيرة كانت تتمتع بتنظيم جيد جعلها تستحق في فترة مجدها وقوتها لقب إمبراطوريات، قامت هذه الإمبراطوريات خلال الفترة التي يعرفها الأوروبيون باسم "العصور الوسطى" وقد بقيت ثلاث من بين هذه الدول في التاريخ هي: غانا ومالي وجوا.

ونحب أن نتساءل هنا: لماذا كانت هذه الدول الثلاث دون غيرها على هذا النحو من الأهمية؟ والجواب هو أنها كانت تلعب دور الوسيط Middle man بالمعنى التجاري، وكانت مدن هذه الدول أسواقاً عظيمة لتجارة الذهب والرقيق الذي يأتي من دول الغابة ليذهب إلى الجنوب، وللملح الذي يأتي من مناجم الصحراء الكبرى، وللخيل والقماش

والسيوف والكتب والسلع الصغيرة (الخردوات) haberdashery التي تأتي من شمالي أفريقيا وأوروبا. وكانت هذه الدول في الوقت نفسه واسطة لنقل الأفكار، فقد كانت مدن السودان الغربي ابتداء من القرن الحادي عشر فصاعداً تمثل المراكز الرئيسية التي تنتقل إليها تعاليم الإسلام عبر الصحراء من شمالي أفريقيا، ثم تأخذ في الانتشار من هذه المراكز إلى مختلف سكان غربي أفريقيا. ولا شك في أن انتشار الإسلام كان يعني شيئاً كثيراً بالنسبة لغربي أفريقيا. فقد كان يعني - من بين ما يعنيه - وجود ارتباط أكثر تدعيماً بين العالمين العربي والزنجي عبر الصحراء، وكان يعني كذلك نمو لتعاليم الإسلام وعلومه. والواقع أن مصادرنا الأساسية عما نعرفه عن هذه الممالك الثلاث إنما تتمثل في تلك الأعمال التي تركها الجغرافيون العرب الذين كانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بوصف هذه المنطقة الإسلامية وكذلك في الدراسات التي كتبها الباحثون الزنوج باللغة العربية.

وأحد الطرق التي ينبغي أن ننظر بها إلى هذه الممالك السودانية هي أن نأخذ تواريخ معينة معروفة في التاريخ الإنجليزي .. ثم نسأل: ماذا كانت عليه الأحوال في السودان الغربي في هذه المرحلة المعينة من الزمن فقد يساعدنا ذلك على أن نحدد قيام وتطور وانحيار دولة غانا ومالي وجوا تحديداً ما داخل الإطار التاريخي.

ولنبداً هنا بهذا التاريخ المعروف لنا تماماً، وأقصد به عام 1066 فماذا كان يحدث في غربي أفريقيا حين غزا وليم الفاتح إنجلترا؟ كانت مملكة غانا في ذلك الوقت هي أقوى دول السودان الغربي، وكان يحكمها شعب لازال موجوداً حتى الآن يسمى الساراكولي Sarakole الذي ظل يسيطر

على المنطقة التي تقع شمالي نهري السنغال والنيجر منذ القرن الثامن الميلادي أو منذ فترة أقدم من هذا التاريخ، ولابد لنا أن نذكر هنا أن دولة غانا القديمة التي كانت على حافة الصحراء كانت تقع على عدة مئات من الأميال شمالي دولة غانا الحديثة أو ساحل الذهب، كما كانت تسمى، وكانت حلقة الاتصال بينهما - الدولة القديمة والدولة الحديثة - هي شعب غانا الحديث فإن مستعمرة غربي أفريقيا السابقة التي أصبحت الآن دولة مستقلة تنظر إلى دولة غانا القديمة باعتبارها السلف الحضاري لها. ونرى أحسن وصف لمملكة غانا التي قامت في القرن الحادي عشر عند الجغرافي العظيم "البكري" هذا الرجل الذي أكمل "وصفه لشمالي أفريقيا" في عام 1067، وعلى الرغم من أن البكري قد عاش حياته كلها في قرطبة بأسبانيا فإنه قد استطاع أن يجمع معلوماته التي تركها لنا من التجار الذين كانوا يعرفون غانا معرفة تامة. وفيما يلي عبارات قليلة مما ذكره البكري في وصف هذه المملكة، يقول هذا المؤرخ العربي.

"تتكون غانا من مدينتين تقعان في أحد السهول، أحدهما وهي التي يسكنها المسلمون مدينة كبيرة جداً، تضم اثني عشر مسجداً .. الأخرى التي يعيش فيها الملك فهي تبعد عن الأولى بستة أميال وتسمى الغابة وتغطي المنطقة التي تقع بين المدينتين مجموعة من منازل السكنى بعضها مبني من الحجر والبعض الآخر من الخشب، وقد كان الملك يختار تراجمته والمشرف على شئون ماليته وأغلبية وزرائه من بين المسلمين .. وكانت الوثنية هي دين هؤلاء الزنوج، كما كانوا أيضاً يعبدون الأصنام .. وكانت كل سبائك الذهب التي يعثر عليها في المناجم تعتبر تابعة للملك، ولشعبه

تراب هذا الذهب .. وكان في استطاعة ملك غانا أن يحتفظ بـ 200,000 محارب، كان 40,000 منهم مسلحين بالقسي والنبال"

وهنا نرى البكري يتحدث عن عاصمة غانا على أنها تتكون من مدينتين أحدهما مسلمة والأخرى وثنية، وموقع المدينة المسلمة هو بلا شك موقع كوامبي صالح الحديثة في أقصى جنوبي ما يعرف الآن باسم موريتانيا. لأن عمليات التنقيب الأخيرة قد كشفت عن عدد من المنازل الحجرية المبنية بناء جيداً والتي تتميز بما في حوائطها في محاريب مثلثة الشكل، ونقوش قرآنية على الملاط (بياض الحوائط) كما عثر على مسجد أيضاً وعدد كبير من المقابر التي تقع خارج المدينة: ويذكر البكري أيضاً أن الأسرة الحاكمة في غانا في أيامه كانت أسرة وثنية، إلا أن الوضع يتغير بعد عشر سنوات من التاريخ الذي أشرنا إليه في الفترة التي تمت بين عامي 1076 - 1077 فيقوم المرابطون البربر وهم جماعة المصلحين المسلمين المتزمطين الذين كانوا يستوطنون المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى والذين كانوا قد أسسوا لأنفسهم من قبل سلطة في مراكش، يقومون بشن هجماتهم على غانا والاستيلاء عليها في النهاية، ثم يقومون بتحويل الأسرة الحاكمة إلى الإسلام. وكان هذا الوقت هو الوقت الذي بدأ فيه الإسلام ينتشر في أنحاء السودان الغربي نتيجة للتغلغل السلمي الذي قام به تجار شمالي أفريقيا.

ولنقف الآن حوالي ثلاثة قرون لنقف على أحوال السودان الغربي في عام 1346 أي في العام الذي حدث فيه معركة كريس Crecy فكيف كانت الأمور تسير في هذه المنطقة في ذلك الوقت؟ كانت إمبراطورية غانا

قد اختفت تماماً، وكان جيرانها الجنوبيون "الصوصو" قد قضاوا على قوتها في عام 1203 على وجه التقريب. كما هاجر معظم التجار والباحثين الغانيين ناحية الشمال إلى مدينة والاتا Walata مدينة القوافل التي تقع على أقصى أطراف الصحراء، وفي الوقت نفسه يمكن أن تكون قد حدثت هجرات إلى الجنوب قام بها شعب غانا كذلك.

وفي عام 1346 كانت مدينتا والاتا وجني Jenne على نهر النيجر الأعلى تمثلان مركزين من أهم مراكز النقل التجاري، وهي العملية التي كانت تتدفق أولاً عن طريق غانا. أما مدينة تمبكتو على نهر النيجر جهة الشرق قليلاً فقد كانت منذ بدء قيامها ذات أهمية تجارية عظيمة.

وكان الجزء الأعظم من منطقة السودان الغربي، وهو الجزء الذي يمتد من السنغال في الغرب حتى دول الهاوسا (نيجريا الشمالية الآن) في الشرق كان هذا الجزء الكبير يعتمد في شئونه السياسية على توسع إمبراطورية مالي. فقد بدأت هذه الإمبراطورية التي تتكون أساساً من شعب الماندينجو تشكل قوة ضخمة خلال القرن الثالث عشر. ولكن منسى (ومعناها الإمبراطور) موسى إمبراطور مالي العظيم في القرن الرابع عشر هو الذي نجح في توسيع حدود هذه الإمبراطورية إلى أقصى أبعادها. وهو الذي قام بأداء فريضة الحج إلى مكة عن طريق القاهرة فأدى ما قام به من أعمال كبيرة إلى أن توضع مالي على الخريطة الأوروبية في القرن الرابع عشر الميلادي. ولقد ظل المصريون يذكرون هدايا الذهب الكبيرة التي وزعها منسى موسى في القاهرة وتأثيرها الضخم على العملة، ظلوا يذكرون ذلك فترة طويلة بعد انتهاء زيارة منسى.

ولقد كتب ابن بطوطة الذي يعتبر أعظم الرحالة العرب أقداماً في العصور الوسطى والذي زار كذلك دول الهند والصين واندونيسيا وتركستان، كتب هذا الرجل أحسن وصف لإمبراطورية مالي في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. فقد وصل ابن بطوطة إلى مدينة Niani عاصمة مالي في شهر يونيو من عام 1353 ميلادية ومكث فيها ثمانية أشهر ولم تكن انطباعاته الأولى عن الإمبراطور الحاكم يومذاك منسى سليمان - شقيق منسى موسى - على ما يرام بالمرة. فقد كتب عنه ابن بطوطة يقول أنه ملك شحيح بخيل، فهو ليس بالرجل الذي يمكن أن يأمل الإنسان من ورائه هدية ثمينة، ولكن العلاقات تعود فتنحسن مرة ثانية حين ينال ابن بطوطة المأكل والمسكن المجاني أثناء إقامته الطويلة هناك، وها هو هنا يعطينا وصفاً حياً للمراسم التي كانت تقام في القصر الملكي في دقة بارعة فيقول:

- أما اللباس العادي للسلطان فهو عباءة فضفاضة من القطيفة الحمراء ويتقدم السلطان جوقة موسيقية خاصة به. يحمل كل من أعضائها قيثارة من الذهب أو الفضة ويسير من خلفه ثلاثمائة عبد مسلحين. وحين يمشي هذا السلطان يمشي بطريقة متتدة "مشية الهوينا" ويتحرك حركة بطيئة للغاية، بل أنه يتوقف بين الحين والآخر. وحين يصل إلى المصطبة يتوقف وينظر إلى الجماعة من حوله ثم يصعد إليها بطريقة وقور أشبه بالطريقة التي يصعد بها الخطيب إلى منبر المسجد. حتى إذا ما أخذ مجلسه تعالت أصوات الطبول والأبواق.

وفي النهاية يتحدث ابن بطوطة عن النظام السياسي في مالي فيقول:

- يتمتع الزوج ببعض صفات تدعو إلى الإعجاب، فهم يحبون العدالة ونادراً ما نجد بينهم ظالماً، بل أنهم أكثر كراهية للظلم من أي شعب آخر ولا يرحم سلطانهم أي شخص يرتكب أبسط عمل من أعمال الظلم. وفي بلادهم يوجد الأمن المطلق الكامل فلا يخاف المسافرين ولا المواطن من أهل البلاد من اللصوص أو الأشرار، وهم لا يصادرون أملاك أي رجل من البيضان (البيض ويقصد بهم التجار المغاربة وغيرهم من التجار العرب الذين كانت لهم بهم معاملة)، حين يموت في ديارهم حتى ولو كان يملك ثروة لا تحصى.

وهذا الموقف من الحرص على أموال الأجانب - كما يذكر ابن بطوطة - لا يمكن أن نراه حتى ولا في فرنسا أو بريطانيا في ذلك الوقت.

ثم لنأخذ الآن عام 1513 وهو عام معركة فلودن Floden التي حدثت حين كان هنري الثامن الشاب ملكاً على إنجلترا، ثم نسأل ماذا كان الموقف في السودان الغربي يومذاك؟

كانت مملكة شعب صنفى التي تقع عاصمتها "جوا" على النيجر الأوسط والتي كانت قد أخذت تتوسع خلال القرن السابق، كانت هذه المملكة في ذلك الوقت في أوج سلطانها وقوتها، وكان ملكها واحداً من أقوى سلاطين غربي أفريقيا وأعني به محمد أسكيا Askia المعروف باسم أسكيا الكبيرة والذي كان قائداً سابقاً في جيش صنفى، فقد أطاح أسكيا هذا في عام 1493 بآخر ممثلي الأسرة الحاكمة وكان رجلاً ضعيفاً وهي الأسرة التي ظلت تحكم البلاد مدة ثمانية قرون وبدأ يباشر سلطاته في جوا.

وفي ظل أسرة أسكيا التي حكمت جوا خلال القرن السادس عشر - وهي الفترة التي توافق العهد الذي حكمت فيها أسرة تيودور في إنجلترا - اتحد الجزء الأعظم من السودان مرة ثانية في ظل حكومة واحدة. والواقع أن إمبراطورية جوا في ذلك الوقت قد امتدت حدودها إلى الشمال داخل الصحراء بما في ذلك مناجم الملح الهامة على حدود الجزائر الحديثة على نحو لم يحدث أن حققته مملكة مالي من قبل. ففي الشرق استطاع أسكيا الكبيرة أن يحتل أجاديس .. مدينة القوافل المزدهرة التي كانت تسيطر على الطرق التجارية الرئيسية الموصلة إلى تونس وطرابلس ومصر. وفي نفس هذا العام أي عام 1513 غزا أسكيا إمارات الحوصة بما في ذلك إمارة كانو التي تعتبر الآن المركز التجاري لنيجيريا الشمالية وجعلها لوقت ما جزءا من إمبراطورية جوا، غير أن عبقرية أسكيا لم تتجل كثيرا فيما قام به من أعمال عسكرية مثلما تجلت في التنظيم الإداري - الممتاز - الذي وضعه هذا الرجل بتأييد الزعماء الدينيين من المسلمين وكذلك التجار - كوسيلة من وسائل توحيد هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف وربطها. فقد تضمن هذا التنظيم إنشاء نظام حكام الأقاليم وإنشاء عدد من الوزارات المركزية للشئون المالية وشئون القضاء والشئون الداخلية وشئون الزراعة والغابات وكذلك إنشاء وزارة خاصة للشعب الأبيض (أي للمقاربة والطوارق الذين يعيشون على الحدود الصحراوية للإمبراطورية).

وبعد هذا التاريخ بقليل، أي بعد عام 1513 بفترة قصيرة زار شاب عربي واسمه الكامل الحسن بن محمد الوزان الزياتي والذي نشأ وترعرع في مدينة فاس بمراكش زار هذا الشاب منطقة السودان الغربي برفقة عمه

الذي كان موفداً في مهمة دبلوماسية من قبل سلطان مراكش إلى أسكيا الكبيرة. ثم حدث والشباب لا يزال في أوائل العقد الثالث من عمره أن أسره القراصنة الصقليون وسلموه إلى البابا ليو العاشر فشجعه هذا البابا على أن يكتب عن أفريقيا، كما حوله إلى المسيحية وخلع عليه اسمه المسيحي "جون ليو" ولذلك أصبح الحسن بن محمد معروفاً لدى الأوروبيين باسم ليو الأفريقي.

ولقد كان نفوذ التجار والمثقفين في إمبراطورية جوا في الوقت الذي زار فيه ليو الأفريقي هذه الإمبراطورية من المسائل التي أدهشت هذا المؤرخ وراعيه، وكان سكان مدينة تمبكتو على جانب كبير من الثراء، خاصة سكانها من الأجانب الذين استوطنوا هذه المنطقة وأقاموا فيها إقامة دائمة وقد بلغ من مكانة طائفة التجار في هذه الإمبراطورية أن زوج الملك بنتيه من اثنين من التجار كانا شقيقين نظراً لما كانا يتمتعان به من ثروة ضخمة.

وفي مدينة تمبكتو كان يوجد عدد كبير من القضاة والأطباء ورجال الدين يتقاضون جميعاً مرتبات مجزية من الملك نفسه. بل المعروف أن هذا الملك كان يولي رجال العلم الكثير من الاحترام والتجلة. وكان هناك طلب متزايد للكتب المخطوطة التي تستورد من بلاد البربر. ويذكر ليو الأفريقي أن تجارة الكتب في تمبكتو كانت أكثر جلباً للربح من أية سلعة تجارية أخرى .. لقد كانت مدينة تمبكتو إذن المركز الثقافي المعترف به لإمبراطورية أسكيا .. كانت جامعتها تهتم بدراسة مناهج متعددة في علوم الدين والشريعة الإسلامية وعلوم البيان وقواعد اللغة العربية وأدبها يليقها أساتذة

زائرون من علماء القاهرة وفاس على طلبة هذه الجامعة الذين كانوا يفدون إليها من مختلف مناطق غربي أفريقيا المجاورة. وكان الشباب كما وصفهم أحد المؤرخين يومذاك - شديدي الرغبة في تحصيل العلم والفضل.

وهنا لابد أن يتساءل الإنسان حتماً .. لماذا اختفت من فوق المسرح إمبراطوريات غانا ومالي وجوا؟ لماذا اختفت هذه الإمبراطوريات الزنجية الضخمة المركزة نسبياً؟ ولماذا اختفت معها هذه الحضارات المزدهرة التي ارتبطت بها؟ لماذا اختفى كل ذلك بعد عام 1600 تقريباً؟ هل يمكن أن نقول أن السبب في ذلك راجع إلى عدم وجود حدود طبيعية لهذه الإمبراطوريات؟ ومعنى ذلك أنها تعرضت لهجوم شن عليها من جانب الصحراء والغابة؟ أم هل هو سوء المواصلات؟ أم يمكن أن يكون السبب اعتمادها الرئيسي على تجارة الذهب والرقيق فقط؟ أم هو التناقض الكبير - الذي أدهش ليو الأفريقي - بين عظمة القصور الملكية وأبهتها وبين فقر الجماهير وعوزها؟ أن محاولة الإجابة على هذا السؤال ستذهب بنا إلى أبعد مما نتصور ولكننا نلاحظ في إمبراطورية جوا بالذات نقطة واضحة جداً، فإن الغزو الذي قامت به القوات المراكشية المسلحة بالمدافع والأجهزة الحديثة والذي نجح في حل مشاكل محطات القوافل في طريق المواصلات الصحراوية هذا الغزو كان من غير شك بداية فترة المتاعب، فإن عملية التوازن التي كانت موجودة بين الزوج والعرب والوثنيين والمسلمين والمقيمين والبدو والمدن والقرى هذا التوازن قد انهار وتحطم. وأصبح الموقف كما يصفه أحد المؤرخين التمبركتويين الذي عاصر بنفسه في القرن السابع عشر هذه المتاعب.

"لقد تغير كل شيء منذ هذا الوقت، فحل الخطر مكان الأمن، والفقر مكان الثراء، وذهب السلام ليخلي مكانه للآلام والكوارث والعنف ولقد أخذ كتاب القرب السابع عشر من الأفريقيين حين كان القلق يملأ نفوسهم من الاضطرابات السياسية التي كانت تحدث أمامهم أخذ هؤلاء الكتاب يتطلعون إلى عصر الأسكيات باعتباره العصر الذهبي لإمبراطورية جوا"

ولقد أصبحت هذه الامبراطوريات السودانية القديمة تمثل بالنسبة للجيل الحاضر من أبناء غربي أفريقيا، وهم يبنون دولهم المستقلة الجديدة نوعاً جديداً من الأهمية فقد أصبحت باعثاً لهم على أن يحققوا في المستقبل ما حققته هذه الإمبراطوريات من قبل من أمجاد في هذه المنطقة من أفريقيا.

بلاد الزنج

جيرفيس ماثيو

Gervase Mathew

يبدأ التاريخ المدون لمنطقة شرقي أفريقيا بظهور الكتيب التجاري الذي وضع في أواخر القرن الأول الميلادي باللغة الإغريقية والذي يطلق عليه اسم كتاب "الطواف البحري للمحيط الهندي" وحين قمت برحلتني على طول كل الطرق تقريباً وأعني بها تلك الطرق التي وضعها هذا الكتاب أيقنت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الوصف كان وصف رجل شاهدها بعينه فعلاً. فالواضح أن هذا الرحالة الإغريقي قد دار بسفينته في وقت ما، ربما في حوالي عام تسعين ميلادية حول رأس التوابل The cape of spices المعروف الآن باسم رأس جورافيو Guardafu بعد أن خرج من خليج عدن فقد أبحر ناحية الجنوب على طول شواطئ المنطقة المعروفة الآن باسم صوماليا وكينيا وتجانيقا وحين يكتب عن سكان هذه المنطقة يصفهم بأنهم كانوا أقرب إلى الوحشية ولكنه حين يصف أسواقهم ويقول عنها أنها كانت جزءاً من الشبكة الملتحمة لتجارة المحيط الهندي، فقد كانت السفن تبحر إلى هناك وافدة من مصر في شهر يوليو بينما تصل إليها مباشرة سفن أخرى قادمة من الهند الغربية، وكان يوجد هناك عرب يعرفون مختلف أجزاء الساحل بل ويتحدثون أيضاً اللغة السائدة فيها. وقد

أطلق الجغرافيون الإغريق على هذا الشريط الساحلي الذي يمتد من الصومال الإيطالي حتى تجانيقا اسم زينجيز Zing's أو زنجيون Zingion بينما أطلق العرب عليه اسم الزنج ولم يبق له من هذه التسميات الآن سوى اسم زنبار، وفي كل منطقة الخط الساحلي الشرقي لأفريقيا بما في ذلك جزره توجد بقايا مدن متهدمة متناثرة هنا وهناك في شكل غير منتظم وفي تداخل معقد وقد أصبح من الممكن - وإن كان ذلك يتم بصورة تدريجية - الكشف عن الفترات والحضارات المختلفة التي ترجع كل من آثار هذه المدن إليها. والصعوبة تأتي من أن هذه الآثار كلها متشابهة وتشير جميعها إلى نقاط الالتقاء التي كانت تتم بين الطرق التجارية القادمة من داخل أفريقيا وحركة تجارة المحيط الهندي التي كانت تأتي مع الرياح الموسمية.

على أن مثل هذه الطرق التجارية تختلف اختلافاً تاماً عن الطرق التجارية التي وصفها لنا المكتشفون الإنجليز في القرن التاسع عشر. ولقد حدث في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر أن تغلغل التجار العرب وهم يبحثون عن العاج وغيره إلى مسافات بعيدة في المناطق الداخلية من أفريقيا حتى وصلوا في النهاية إلى البحيرات العظمى غير أنه ليس ثمة دليل على أن أي عربي قد استطاع أن يتغلغل إلى ما وراء الساحل الجنوبي رأس جوردافيو حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فقد كان التجار الأفريقيون في الفترة الزمنية قبل ذلك يأتون بأنفسهم إلى الساحل ومعهم العبيد والعاج ثم يخزنونها في المراكز المناسبة بالقرب من مصب أحد الأنهار أو على شواطئ بعض الجزر حتى تستطيع

السفن العربية التي تأتي إلى الجنوب أن تجمعها بعد شرائها. وهذا - على الأقل - هو أقرب الفروض العلمية احتمالاً من حيث ملاءمته لما لدينا من وشواهد وأدلة وليس من شك في أن هؤلاء التجار كانوا يأتون من مناطق بعيدة.

وكان الذهب والعاج يأتان من روديسيا حيث تتم عملية مقايضتهما في سوفالا في شرقي أفريقيا البرتغالية الآن - بالخرز الهندي الذي عثر على كميات كثيرة منه بين أطلال زمبابوي - ولا جدال في أن الطريق التجاري الذي يمتد إلى سوفالا ثم عن طريق البحر على طول الساحل حتى كلوة. لا جدال في أن هذا الطريق كانت له أهمية حساسة بالنسبة للتطور الاقتصادي لمنطقة شرقي أفريقيا، ومن الصعوبة هنا بمكان أن نذكر متى بدأ ذلك. وهناك بعض الشواهد التي نأخذها من كتاب "أخبار كلوة" تدل على أن حكام هذه الدولة .. دولة الجزيرة الصغيرة كانوا يحتكرون التجارة في أواخر القرن الثاني عشر، ويبدو أن تجارة الذهب قد بلغت قمة نشاطها خلال القرن الخامس عشر قبيل مجيء البرتغاليين إلى أفريقيا، ولم يكن هناك طريق تجاري آخر يأتي من داخل أفريقيا يضارع هذا الطريق في أهميته. وقد أشار الدكتور روجر سامرس إلى أنه من الممكن تتبع خط للعلاقات التجارية يبدأ من منطقة شعب زيوا Ziwa في جنوبي روديسيا عبر الزمبيزي براحتي كلوة. وعثرت مسز ليكي Leakey على أصداف من الودع من جزر ماليف ترجع إلى العصر الجليدي موجودة بالقرب من ناكورو Nakuru في منطقة الأراضي العالمية من كينيا مما يجعل من المحتمل الظن بأن ذلك لم يكن سوى نتيجة لعلاقات تجارية كانت قائمة بين شعوب هذا

الجزء من أفريقيا وشعوب جزر مالديف، وربما وجد النفوذ الشمالي - أعني نفوذ أكسوم في أثيوبيا - طريقه إلى الجنوب أيضاً حيث ميناء دورنفورد Durnford لأنني لاحظت وجود أحجار أسطوانية مستقيمة هناك يمكن أن تكون حلقة الاتصال بين نظام الأعمدة الأكسومية ونظام أعمدة المقابر المنتشرة الآن بصفة عامة في المناطق التي تقع على طول الساحل ولكن حتى بعد أن تم التسليم بكل هذه النتائج لا يمكن أن يكون هناك شيء حتى الآن يمكن أن يعادل شبكة الطرق التجارية الطويلة التي كانت موجودة في أوائل القرن التاسع عشر. فإلى أقصى الشمال وراء رأس جوردافيو قامت مملكة عدال Adal الإسلامية المزدهرة في القرن الخامس عشر كنتيجة للصلات التجارية التي امتدت غرباً حتى الممالك الإسلامية جنوبي الصحراء الكبرى، وكان ميناء زيلع هو منقذ هذه المملكة (عدال) الذي كانت السلع التجارية الأفريقية وكذلك بعض الحجاج تصل من خلاله إلى الجزيرة العربية وكان يوجد على طول الساحل الشرقي لأفريقيا نفوذ للإسلام في المدن التجارية القائمة هناك غير أن ثراء هذه المراكز التجارية وأهميتها كانا يتعرضان للبعث أو الهبوط تبعاً للظروف التجارية في المحيط الهندي ككل لأن هذا المحيط كان يشكل بصفة أساسية وحدة اقتصادية واحدة.

وبعد أن قمت في الفترة الأخيرة بمسح أثري على الشاطئ الآخر للمحيط الهندي وبالذات عند منطقة غرب الساحل الملايوي أصبحت مقتنعاً الآن بأن هناك تشابهاً (أو نغمة واحدة) بين كل من تاريخ الملايو، وتاريخ ساحل أفريقيا الشرقية، ففي كلتا المنطقتين يبدأ التاريخ المسجل

بقائمة مدن الأسواق الصغيرة التي توجد عادة بين كل شعب بدائي يتخطى مرحلة العصر الحجري وفي كلتا المنطقتين أيضاً يخيم الظلام والغموض على أخبار المرحلة الثانية التي تبدأ من حوالي القرن الخامس وتنتهي في حوالي القرن الثاني عشر. ولا تعثر فيها على دليل لأي نوع من أنواع العلاقات مع عالم البحر الأبيض المتوسط. وكان النفوذ الهندي المباشر قوياً جداً في الملايو ومن المحتمل أنه كان موجوداً كذلك في شرقي أفريقيا. كما أن السلع التجارية الصينية والطلبات التجارية كانت قد بدأت تحدث أثراً على كل المحيط الهندي في هذه الفترة، أما الفترة الثالثة فإنها تبدأ من القرن الثاني عشر وتنتهي في أوائل القرن السادس عشر وهي الفترة التي سيطر فيها المسلمون على تجارة المحيط الهندي. فقد كانوا يأتون من الجزيرة العربية ومن الخليج الفارسي وكذلك من الهند الإسلامية وكانوا يقومون في عالم التجارة بدور الوطاء، ومعروف أنه كان هناك طلب متزايد على الذهب من جانب أوروبا وكان هنري الثالث ملك إنجلترا يستخدم الذهب الأفريقي في العملة التي كانت تصك في لندن، كذلك كان هناك طلب دائم للعاج ورواج منقطع النظير لكل نوع من أنواع التوابل، وكان التجار المسلمون يحضرون ذهب روديسيا وعاج تنجانيقا وتوابل اندونيسيا إلى الموانئ المصرية والسورية ومن ثم يزدون في ثروة مدينتي البندقية وجنوا في العصور الوسطى، وفي الجهات الشرقية كانت توجد تجارة أخرى، فقد كانت الصين في حاجة ماسة إلى العاج الأفريقي، وفي الهند كانت هذه السلعة بصفة خاصة تحظى بكثير من التقدير.

على أن معلوماتنا عن هذه الفترة في شرقي أفريقيا تزداد باستمرار عن

طريق علم الآثار ويبدو أن مدن العصور الوسطى التي كانت قائمة على طول الساحل الأفريقي قد ظهرت إلى عالم الوجود في حوالي القرن الثاني عشر وأنها وصلت إلى قمة ازدهارها في حوالي عام 1500 ميلادية.

ولقد تحولت المدن التجارية بهندستيا المعمارية الخاصة بها وبالعلاقاتها عن طريق الشرقيين الأوسط والأقصى، تحولت هذه المدن إلى مدن تجارية عظيمة، ومن المحتمل أن هذه المدن كانت تقام أساساً من الخشب وتشاهد في مدينة قصر يونجو منارها التي تهدمت والتي تقع على أحد جزر المرجان وعلى بعد من "تنجانيقا" تشاهد في هذه المدينة أقواساً Arches مدينة ذات أطراف حجرية رفيعة قد أعيد تركيبها داخل مثلث من الحجر المهذب وأقيمت القباب النصفية على أنصاف أعمدة مساوية ولقد عثرت بنفسى بين الأطلال على أنواع من الفخار المطلي محطمة متناثرة هنا وهناك من هذا النوع الذي يستورد من المنطقة الإيرانية، كما عثرت على آنية من الفخار الحجري من بورما وسيام وقطع من العقيق الأحمر والكهرمان والبذور والعقيق الأصفر وكمية من الخزف الصيني من أواخر عصر سانج إلى أوائل عصر منج.

وقد كان هناك تطور متواز على الجانب الآخر من المحيط الهندي فالوظيفة التي كانت تؤديها مدن كلوة بتنجانيقا في القرن الخامس عشر هي نفس الوظيفة التي كانت تؤديها مدن مالاکا بالملايو حيث كانت جميعها من الزنجارية إسلامية ولم أجد - وهذا من المسائل التي لها مغزاها - في هاتين المنطقتين كلوة في أفريقيا ومالاکا في الملايو - تشابهاً فقط في الخزف الصيني الموجود في كليهما بل وجدت كذلك تماثلاً حتى في أجزاء هذا

الصدف ونسبه. وليس هذا فحسب بل أن النظام الذي كان سائداً في كليهما كان متماثلاً أيضاً فمعظم السلطة كانت مركزة في يد "محافظ القصر" Mayor of the palace وهو الأمير في كلوة والبندھارا Bendhara في مالاکا. ويبدو أن كتاب تاريخ كلوة الذي ضاع أصله يشبه إلى حد كبير كتاب تاريخ مالاکا الذي وضع في أوائل القرن السادس عشر.

ثم استحالت صورة عالم المحيط الهندي كله فجأة إلى شكل آخر حين ظهر البرتغاليون على مسرحه. فقد دار فاسكودي جاما حول رأس الرجاء الصالح في نوفمبر من عام 1467م وأبحر بعد ذلك إلى شرق الساحل في طريقه إلى الهند ولم يمض بعد هذا التاريخ سوى ثمانية أعوام حتى كان البرتغاليون قد سلبوا كلوة وممباسا: وظلوا لأكثر من مائة عام ينظرون إلى المحيط الهندي كما لو كان بحيرة برتغالية.

ومن العجيب أن هذه الفترة البرتغالية لم تترك سوى تأثيرات قليلة في منطقة شرق أفريقيا شمال موزمبيق تكاد تنحصر في بناء بعض الحصون في المدن الساحلية واستعارة بعض الكلمات في اللغة السواحلية ووجود بعض تقاليد المناسبات مثل مصارعة الثيران في مبابا شمال زنجبار.

وكان بقاء الإمبراطورية البرتغالية أمراً مرهوناً ببقاء سيطرتها على الطرق البحرية وقد فقدت هذه السيطرة - وبالتالي فقدت قوتها كإمبراطورية - في أوائل القرن السابع عشر الميلادي وقد دمرت إحدى الثورات الوطنية أزهى المستعمرات البرتغالية التي أقامها البرتغاليون في شرق

أفريقيا، واستطاعت دول السواحيلي أن تظهر إلى الوجود وأن تحتفظ باستقلالها وإن لم يكن هذا الاستقلال ثابتاً مستقراً.

وهذه المرحلة أو الفترة الخامسة من تاريخ ساحل أفريقيا الشرقي قد استمرت من حوالي عام 1637 حتى حوالي عام 1810، وقد ظهرت هناك على كل منطقة شواطئ ما كان يعرف باسم بلاد الزنج، ظهرت مدن صغيرة تتسم بطابع حكم الأقلية في هيكلها الاجتماعي وتمارس أعمال التجارة في العاج والرقيق وتستخدم الخرز ولفات القماش باعتبارها العملة المتداولة فيها، وكانت هذه المدن جميعها مدناً إسلامية يتحدث أهلها اللغة السواحلية. وكان الذي يربط بين مدن هذه الفترة هو ذلك الشكل الموحد - المنازل والمساجد والحصون والمقابر ذات الأعمدة، وكذلك استخدام كميات كبيرة من الخزف الصيني الأزرق والأبيض. حتى إذا كانت الفترة الأولى من القرن التاسع عشر قضي ظهور زنجبار الجديدة في ظل حكامها العرب من الخليج الفارسي على تجارة هذه المدن، وفي استطاعتنا أن نستعيد كثيراً مما كانت عليه صور الحياة في هذه المدن من قصائد الشعر السواحيلي ..

وعلى الرغم من أن هذه المدن - كما يبدو واضحاً - كانت تعتمد في تراثها على تجارة المحيط الهندي إلا أنها ظلت مدناً أفريقية خالصة. ولربما كانت "باتي" أكثر كل هذه المدن ثراء وغنى، فقد أصبح من الأقوال المأثورة الشائعة أن نبلاء هذه المدينة كانوا يصعدون إلى أسرهم المصنوعة من العاج على سلام من الفضة ولدينا مع هذا وصف لأثرياء مدينة باتي

لذلك كانوا يقوسون رقابهم الطويلة ويهزون أذرعتهم المتشابكة بينما يقف العامة من الناس يتطلعون إليهم بعيون زائغة، وهذا مثل أعلى للسلوك الأفريقي لا العربي. بل هناك أشياء كثيرة أخرى تذكرنا ببلاد غربي أفريقيا. ولقد كانت الطبلبة الكبيرة أو البوق العاجي - كما يبدو واضحاً - في كل دولة صغيرة شيئاً ما أكثر من مجرد مسألة طقوس دينية وكان سكان هذه المدن لا يمجدون القوة فحسب بل يمجدون الروح كذلك ولهذا كانت النساء هن القوامات على الشعب ولربما كن الملكات (Queens) اللاتي ذكرهن الأوربيون المعاصرون في أوصافهم وحتى النساء المتزينات "وأعني بهن العاهرات The courtesans كان لهن وضع معين، كذلك كان للأطباء من السحرة نفوذ وصوله بين الناس.

وإذا كان هذا أمراً صحيحاً في القرنين السابع عشر والثامن عشر فإنه لابد وأن يكون صحيحاً كذلك في شرق أفريقيا خلال العصور الوسطى، لأن ابن بطوطة وهو أعظم الرحالة جميعاً على الإطلاق حين وصل إلى تنجانيقا في القرن الرابع عشر وصف مدينة كلوة بأنها مدينة جميلة ومبنية بناء جيداً ولكنه لاحظ في الوقت نفسه أن سكانها كانوا عميقي السواد The black يحفرون وجوههم زينة وعجباً. ويوحي وصفه التفصيلي لإحدى الدول السواحيلية وكأنه يصف لنا دولة زنجية أشبه بهذه الدول التي زارها على طول الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى.

وليس هناك إنسان يستطيع أن ينكر أنه كان يوجد تجار عرب وهنود وفارسيون يقيمون إقامة دائمة عند مواني الساحل الشرقي خلال العصور الوسطى. ولا تزال لدينا سلاسل النسب الطويلة التي كان حكام كلوة في

أوائل القرن السادس عشر يعتمدون عليها في إدعائهم أنهم سلالة ملوك فارسيين ومع هذا فإن بعض المدن التي اكتشفها البرتغاليون كانت ذات أسر ملكية أفريقية وهي المدن التي تحولت إلى الإسلام وأخذت تدريجياً بأساليب الدول الإسلامية ونظمها.

ولا شك في أن بلاد الزنج Zanj كانت تعني بالنسبة لكل جغرافي العصور الوسطى بلاد

الزنج A land of negroes.

وأخيراً فإن هناك شيئين يبدوان واضحين، أولهما هو أن تاريخ ساحل شرق أفريقيا يصبح فقط واضحاً ومفهوماً حين ندرسه على أنه جزء من تاريخ المحيط الهندي. فقد أتى النفوذ الذي أثر في حضارات هذه المنطقة الساحلية لشرق أفريقيا، كما أتت الثروة التي اعتمدت عليها مدنه في قيامها، أقول أتى ذلك كله أساساً من التجارة الشرقية أو بسببها. ولكن الشيء الثاني هو أن هذه المنطقة قد بقيت جزءاً من أفريقيا.

لقد طلع الفجر حقاً من الشرق ولكنه كان فجراف أفريقيا.

لغز زمبابوي

رونالد أوليفر

Ronald Oliver

هناك عند الزمبابوي .. في وسط منطقة روديسيا الجنوبية توجد مجموعتان نادرتان من الأطلال الحجرية، تشكل كل منهما ربما أعظم لغز في تاريخ أفريقيا كله. وتتوج المجموعة الأولى منهما إحدى السطوح الصخرية ... وربما كانت حصناً أقيم على التلال الواقعة هناك، بينما تضم المجموعة الثانية التي توجد في الوادي الأسفل بناءً فسيحاً بيضاوي الشكل يحيط به سور هائل من الأحجار، كما توجد بداخل هذا السور عدة أسوار حجرية أخرى، ولهذا الفناء برج معين مصمت ذو شكل مخروطي، ليس له نظير في أي مكان آخر من العالم.

ويتساءل جميع الباحثين .. من الذي أقام هذه المباني؟ ومتى أقيمت؟ ولماذا؟

ولمحاولة الإجابة على مثل هذه الأسئلة نقول: كان معظم المكتشفين الذين قاموا بأبحاثهم في أواخر القرن التاسع عشر - وهم أول من أذاعوا خبر وجود هاتين المجموعتين للعالم الخارجي - يعتقدون أولاً أن مثل هذه الآثار لا يمكن أن يكون الأفريقيون هم الذين شيّدوا مبانيها، فحين كان المنقبون عن المعادن يعملون في حماس للبحث عن كنوز الملك سليمان

قرروا أن آثار الزمبابوي إنما تنتسب إلى تجار الذهب الفينيقيين الذين كانوا يعيشون في العصر الألفي السعيد قبل ميلاد المسيح.

وقد وجد علماء الآثار جانباً من الصواب فيما ذهب إليه هؤلاء المكتشفون حين عثروا على بعض السلع التجارية التي كانت سائدة يومذاك في هذه المنطقة، فالآثار الباقية من الخزف الصيني وحبّات الخرز - ومعروف أنها من الهند أو الملايو - توضح في جلاء أن سكان منطقة الزمبابوي - أيّاً كانوا - كانت لهم بلا شك صلة بالنظام التجاري الذي كان سائداً في المحيط الهندي خلال العصور الوسطى.

وقد أعيد بناء مجموعتي الزمبابوي، وأضيف إليها الكثير، غير أن تاريخ البناء الأول لا يزال غير مؤكد ولا محدد، ولعل من الممكن فرضاً أن يكون هذا البناء قد تم في أوائل القرن الحادي عشر أو في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي. ومع هذا فمن المؤكد أن الذين شيّدوا هذه المباني لم يكونوا هم الفينيقيين، فعلى الرغم من أنهم كانوا على صلات تجارية بشعوب أخرى غير شعوب أفريقيا فإن الرأي الحديث يكاد يؤكد وجهة النظر القائلة بأن البنائين أنفسهم كانوا أفريقيين ..

على أن أطلال الزمبابوي تروّع من يشاهدها وإن لم يكن فيها شيء فني كبير. فهي مصنوعة فعلاً من الأحجار .. ولكن هذه الأحجار موجودة بوفرة في هذا الجزء من روديسيا الجنوبية وكان الأفريقيون - كما هو معروف - يمارسون البناء بالأحجار هناك، وظلّوا كذلك حتى حوالي مائة وخمسين عاماً مضت.

ولم تكن الأحجار التي استعملت في مباني الزمبابوي مهذبة الشكل تماماً، كما أنه لم يكن يتم تركيبها بوساطة الملاط "المونة" .. وكذلك لم يوجد ثمة دليل على أن أي مبنى من المباني في هذه المنطقة كان مسقوفاً بأي شيء أكثر من بوص الغاب الداجا Daga (وهو نوع من الأسمنت البدائي مصنوع من الأكمة المسحوقة التي يسكنها النمل والتي يطلق عليها اسم قرى النمل) كذلك لم تكن للمباني أفاريز أو نتوء تزينها أو عقود للسقوف أو أقواس الخ ... وكانت أطلال الوادي تبدو أشبه بهياكل البوص والحشيش التي كانت تشكل ما يسمى بالقصور التي كثيراً ما كانت تقام للزعماء أو الملوك الكبار في أجزاء أخرى من أفريقيا.

وهكذا يبدو كما لو أن الشعب الذي تعود البناء بالبوص والغاب قد حول في بساطة تصويره المعماري إلى الحجر. فأقام الأسوار منها بدلاً من الأسوار التي كانت تصنع من الغاب، وبنى الأبراج والمصاطب من الحجر بدلاً من المرتفعات الصناعية التي كان يقيمها من التراب .. وفي الوقت نفسه - كما يبدو - كانت منازل السكنى تقام أيضاً من اللبن أو الداجا. وليس معنى هذا أن العمل لم يكن يتم في عناية ومهارة، بل أنه قد تم على المستوى الذي لا بد وأنه قد تكلف الكثير من مواد العمل في دولة ضخمة كانت منظمة تنظيمياً جيداً.

ولا نكاد نعرف شيئاً - تقريباً - عن هذه الدولة خلال عصر ازدهارها حين كانت مدينة الزمبابوي العظيمة الأولى هي عاصمة هذه

الدولة. ومع هذا فإن الشواهد التي تركها الكتاب العرب في العصور الوسطى، وكذلك الآثار المادية الباقية للمدن التجارية الإسلامية ... تشير كلها إلى أنه كانت توجد في هذه الدولة تجارة مزدهرة في الذهب والعاج وهي التجارة التي لا بد وأنها قد ساعدت على رفع مستوى الإيرادات العامة فيها. وحين وصل البرتغاليون إلى هذه المنطقة في القرن السادس عشر الميلادي كانت هذه المملكة تمر فعلاً بحالة من الانهيار والأفول، وكانت الولايات التابعة لها قد أخذت تتخلى عن الولاء لها والطاعة لملكها. ثم انتقلت عاصمة هؤلاء الذين شيدوها أصلاً من منطقة الزمبابوي العظيمة إلى جهة الشمال بعيداً عن منطقة المباني الحجرية. فاستتبّع ذلك إقامة مباني العاصمة الجديدة من الأخشاب والغاب بدلاً من الحجر.

وقد انتقلت أسرة حاكمة جديدة تسمى "الروزوي" Rozwi من الغرب إلى المركز السابق لهذه المملكة القديمة. وإلى هذه الأسرة التي نعرفها الآن يجب أن ننسب المباني التي أقيمت بعد ذلك عند منطقة الزمبابوي العظيمة، بما في ذلك البرج المخروطي الشكل والصور العظيم.

وقد ظلت العاصمة الشمالية الجديدة للمملكة القديمة تسمى كذلك "الزمبابوي" وكان معروفاً تماماً أن مباني الزمبابوي الأولى قد أقيمت من الأحجار في مكان يقع إلى الجنوب، وكان الحاكم نفسه يسمى مونوماتابا، أو كما هو أكثر شيوعاً كان يسمى مامبو Mambo وكان شعبه معروفاً للبرتغاليين باسم ماكارانجا Makaranga الكلمة التي لا تزال تستعمل في وصف إحدى مجموعات شعوب الماشونا في روديسيا الجنوبية، وحتى في القرن السادس عشر الميلادي كان شعب الماكارانجا يتميز عن الشعوب

الأخرى في المنطقة بأن أفرادهم كانوا يرتدون الملابس المصنوعة من الأقمشة وهي السلع الرئيسية التي كانت تستوردها البلاد في مقابل صادراتها من العاج والذهب. ونؤكد هنا أن شعب الماكارانجا الذي كان يعيش في القرن السادس عشر هو السلالة المضطربة للشعب الأصلي الذي أقام مباني الزمبابوي الحجرية الأولى في تاريخ يقع في فترة المائتي عام أو الخمسمائة عام قبل ذلك.

وهنا نتساءل: ومن هم إذن هؤلاء الماكارانجا؟

ولكي نجيب على هذا السؤال ينبغي أن ننظر - مع مزيد من التفصيل - فيما قال أحد البرتغاليين في القرن السادس عشر عن عادات هؤلاء الماكارانجا ونظامهم الاجتماعية.

أولاً: لم يكن المونوماتابا هو الملك أو الحاكم بالمفهوم الذي تعرفه عن هاتين الكلمتين في دول العالم الغربي، فإن هذا المونوماتابا لم يكن سوى ملك مقدس أو ملك كهنوتي من نوع كان معروفاً تماماً في أجزاء أخرى من أفريقيا. لقد كان أفراد رعيته حين يقتربون منه يزحفون على بطونهم ... وأعتقد بأن هذا الملك كان يجلس في اجتماعاته الرسمية مع شعبه مختبئاً وراء ستار، لأن الجماهير - كما قيل - لم تكن تستطيع أن تراه مطلقاً ولو أنه كان من الممكن لها أن تسمع صوته وكان جميع أفراد حاشيته يقلدونه حتى في أبسط ما يأتيه من أعمال. فإذا ما سعل مثلاً كان لابد أن يسعلوا جميعاً.

ومن الطريف أنه كان من الأمور الضرورية لرفاهية كل الدولة ورخائها

أن يكون الملك سليماً، ليس به أي عيب بدني، فإذا ما هرم أو أصيب بمرض خطير كان عليه أن يتناول جرعة من السم ليموت ويخلي منصبه لخليفته من بعده.

وإلى جانب المفهوم الكهنوتي الأعظم لسلطة الملك كان يوجد كذلك نظام دقيق محكم للغاية لبلاطه ورجال حاشيته، وقد وضع المكتشفون البرتغاليون الذين شهدوا القصر الملكي قائمة بأسماء الوظائف التي كان يشغلها أصحابها في القصر نفسه، ومنها "مستشار المملكة" و"رئيس حجاب القصر" و"رئيس عازفي الطبول" و"القائد العسكري" و"حارس الآلهة" و"رئيس البوابين" و"الطباخ الرئيسي" وهكذا ... وكان لكل هذه الوظائف ألقاب خاصة بها، تنتقل من حاملها إلى من يأتي بعده ... وكان نفس هذا النظام موجوداً كذلك لدى الملكة الأم وزوجات الملك التسع التي كان لكل منهن أجنحة خاصة لسكانها، كما كان لها بلاطها وحاشيتها التي تعتبر صورة مصغرة لبلاط الملك وحاشيته وذلك داخل القصر.

وبالإضافة إلى هؤلاء الزوجات الرسميات كان يوجد أيضاً عدد آخر من المحظيات والوصيفات اللائي يصل عددهن إلى حوالي ثلاثة آلاف واحدة. وإلى جانب ذلك كان يوجد أيضاً - عدا أفراد الحاشية الملكية - عدد آخر من الملوك التابعين وحكام الأقاليم وطبقة كبيرة من النبلاء. ومن المحتمل أنها كانت ترسل بأبنائها الأطفال إلى قصر المونوماتابا ليتعلموا كيف يكونون خدماً ووصفاء ومحاربين.

وكان النظام الرئيسي الذي تتميز به مملكة مونوماتابا يتمثل في وجود

طقوس "النيران الملكية" Royal Fire وهي النيران التي تظل مشتعلة طالما كان الملك على قيد الحياة. وكان عند كل زعيم عظيم، كما كان عند كل التابعين الآخرين نيران أخرى يشعلونها أصلاً من النيران الملكية. وكان لابد بعد الاحتفالات العظيمة التي كانت تقام في شهر مايو بظهور القمر الجديد، كان لابد من إشعال هذه النيران مرة ثانية من النيران الرئيسية، أي من النيران الملكية كما كان الملك يبعث برسله إلى كل مكان في أرجاء دولته، ومع كل منهم جذوة من نيران الملك ليشعلوا النيران في مختلف المناطق الموجودة بها أصلاً. وكانت هذه العملية ترمز إلى تجديد ولاء الزعيم أو التابع للملك، حتى إذا ما مات الملك أطفئت جميع النيران الموجودة في المملكة كلها، وساد الاعتقاد الشائع بأن روحه قد استقرت في جسد أسد، ولعل هذا يفسر لنا لماذا كان أفراد هذا الشعب ينظرون إلى الأسد على أنه حيوان مقدس لا يصح قتله مطلقاً إلا في حالة واحدة هي حالة الصيد التي يكون الملك موجوداً فيها، وكثيراً ما كان يشار إلى الملك على أنه الأسد.

وهذا العرض السريع للعادات والنظم الاجتماعية التي كانت عليها شعب الماكارانجا يلقي ضوءاً على النتائج التي وصل إليها علماء الآثار وهي أن الأفريقيين هم دون سواهم الذين شيدوا مباني الزمبابوي، لأنه لا يكاد يوجد مثل قريب لمثل هذا الهيكل الاجتماعي الذي وصفه الكتاب البرتغاليون في أي مكان آخر من العالم غير أفريقيا.

أما في داخل القارة نفسها فإننا نرى كثيراً من التقاليد الاجتماعية التي تشبه إلى حد كبير تقاليد شعب الماكارانجا ولا يمكن أن يكون هذا التشابه قد جاء عرضاً أو مصادفة بل أن تماثله إلى هذا الحد يستلزم التفسير

التاريخي العميق لها.

ولعل أقرب التقاليد الاجتماعية لتقاليد شعب الماكارانجا هي تقاليد شعب مملكة أنكولي Ankole في جنوب غربي أوغندا وفي مملكة رواندا. ففي هاتين الدولتين نرى أن كل ملامح الهيكل الاجتماعي في مملكة مونوماتابا في القرن السادس عشر موجودة اليوم في كل من مملكة مونوماتابا في القرن السادس عشر موجودة اليوم في كل من مملكتي رواندا وأنكولي ... الملك الكهنوتي المقدس ... طقوس ملكية الروح ... حلول روح الملك في جسد أسد .. النيران الملكية ... الاحتفالات بالقمر الجديد ... الملكة الأم ... الملكات الرسميات بحواشيهن .. موظفو القصر والخدم والطبقة النبيلة المقربة من الملك الخ ... بل وليس هذا قاصراً على شعوب مملكتي أنكولي ورواندا فحسب بل إننا نرى كذلك نفوذاً لتأثير تقاليد شعب الماكارانجا على الشعوب التي تسكن جميع المناطق المجاورة في أوغندا الجنوبية وشمال غرب تنجانيقا ورواندا - أورندي والكنغو الشرقي.

والشيء الذي يلفت النظر حقاً فيما يتعلق بشعوب أنكولي ورواندا حيث تتشابه التقاليد الاجتماعية التي تمارسها مع تقاليد شعب المكارانجا إلى حد كبير هو أن هناك دليلاً لا يقبل الجدل على وجود عنصرين ظل كل منهما في عزلة عن الآخر لأن أعضاء الفريقين كانوا يشكلون طبقتين اجتماعيتين اقتصاديتين متميزتين، طبقة حاكمة تتكون من الرعاة القوقازيين الحاميين، وطبقة أخرى تابعة تتكون من الفلاحين الزنوج، وكانت النظم السياسية السائدة في هذه المنطقة هي بطبيعة الحال نظم الطبقة الحاكمة.

ومن هذا نستطيع أن نعرّث - كما يبدو لي على الأقل - على المفتاح الأساسي نكشف الشيء الكثير من حضارة مونوماتابا الزمبابوية، فليس لدينا دليل حتى الآن على أن شعوب أنكولي ورواندا قد استعمرت شعب منطقة روديسيا الجنوبية، كما أنه ليس لدينا من الأسباب ما يجعلنا نفترض أن تاريخ مملكتي أنكولي ورواندا يرجع في قدمه إلى تاريخ قيام مباني الزمبابوي الأولى، إذ أن ما نعرفه عن أول تاريخ لهما يرجع إلى حوالي ستمائة عام مضت من الآن، ولكن هناك أكثر من دليل يؤكد وجوب نسب مشترك بين حضارة شعب مونوماتابا الزمبابوي وبين حضارة شعوب كل من مملكتي أنكولي ورواندا.

واعتقد بأن علينا لكي نعرف هذا الأصل الحضاري لكل هذه الشعوب أن نبحث عنه في مكان ما داخل أثيوبيا الحديثة، وليس في مملكة الحبشة القديمة لأن هذه المملكة القديمة كانت تدين بالمسيحية ابتداء من القرن الرابع الميلادي ولم يحدث أن شاهدنا أي تأثير أو نفوذ للمسيحية لا في حضارة مونوماتابا ولا في حضارة أنكولي ورواندا، بل اعتقد بأن علينا أن نبحث عن هذا المصدر في الممالك الحامية أو السامية الصغيرة التي تجاور حدود مملكة الحبشة من جهة الجنوب والغرب وأعني بها ممالك داموت Damot، وأناريا Enarya، وكافا Kaffa، وجينجيرو Jinjero وغيرها فجميعها مناطق لم تتأثر بأي نفوذ مسيحي أو إسلامي حتى القرن السابع عشر.

وليس ثمة شك في أن تاريخ أفريقيا الحديث مليء بأخبار الهجرات البشرية التي كانت تقوم من أجل المراعي، وقد كان المهاجر يسير في أي

اتجاه يروق له وتدفعه إليه حاجة قطعانه إلى الغذاء حتى يستقر أخيراً في المنطقة التي يجد فيها بغيته، وكان ينقل معه في هجرته كل ما كان يمارسه في موطنه الأصلي .. من تقاليد اجتماعية ونظم سياسية.

ولقد حدث أن ظلت حضارة كل من مملكتي الأنكولي والرواندا قائمة حتى اليوم، بينما اختفت حضارة بلاد الماشونا في نهاية القرن السادس عشر، وذابت كل معالمها في حضارة الغالبية الساحقة من أبناء البانتو.

@booka

شعوب ممالك السودان الأوسط

د. هـ. جونز

D.H. Jones

كان يطلق على الدولة التي تقع حول بحيرة تشاد دولة مفترق الطرق العظيم لأفريقيا الاستوائية، فهي المنطقة التي وفدت إليها شعوب من أجناس كثيرة مختلفة من مناطق الشرق والشمال، وهي أيضاً المنطقة التي كانت تنتشر منها هذه الشعوب مدة أخرى في بعض الأحيان ناحية الجنوب الغربي والجنوب الشرقي.

وتمتد منطقة المراعي الوسطى ناحية الشرق والغرب وهي التي تمثل منطقة كبيرة من نيجيريا الشمالية، تمتد هذه الأراضي دون أية حوائل من شواطئ النيجر إلى سهول دارفور حيث تنعدم الحواجز الطبيعية التي تقف حائلاً دون تحركات الإنسان وهجراته. ومن ثم استطاعت جماعات قليلة من البدو وهم يسوقون معهم قطعانهم من الماشية والأغنام، استطاعت أن تخترق في مواسم قليلة منتصف الطريق عبر أفريقيا.

ولقد أثارت الكثير من الملامح الموجودة في الديانات التقليدية والنظم السياسية في نيجيريا، أثارت دهشة بعض المراقبين لأنها دليل واضح على وجود نفوذ للشرق الأوسط القديم هناك، ولا شك في أن كل شعوب نيجيريا تقريباً وأعني بها الشعوب الهامة من الناحية التاريخية تتميز بوجود

تقاليد دقيقة واضحة وصلت إلى هذا الجزء من العالم من كنعان واليمن.

ومع هذا فسيكون من الخطأ القول بأن هذه التقاليد قد جاءت مع هجرات عارمة وفدت من الشرق في عصور تاريخية، ولن نستطيع أن نصور كل الدول في حالة تحركاتها. أن النفوذ الذي وصل من الشرق قد ظل يحدث تأثيراته في فترات مختلفة من تاريخ نيجيريا، فمعرفة صناعة الحديد مثلاً وهي التي تطورت أول ما تطورت في أفريقيا وبالذات في المنطقة المجاورة لمملكة مروي شمال الخرطوم الحديثة من المحتمل أنها قد دخلت من هذا الاتجاه أيضاً. كذلك دخلت من هذا الطريق التقاليد النيجيرية الخاصة بأسلوب صب البرونز وعملية الشموع التي اخترعت أساساً في آسيا الشرقية وواضح أن هؤلاء الذين أحضروا هذه الحرف قد أتوا معهم كذلك بعقائد جديدة وتنظيمات جديدة أيضاً. وكانت التنظيمات الأولى في بوندو وبعض ممالك نيجيرية أخرى تشبه إلى حد كبير، إن لم تكن هي نفس التنظيمات التي كان معمولاً بها في مملكة مروي القديمة. ومع هذا فإن علاقات مباشرة قليلة كانت قائمة أثناء العصور الوسطى والعصور الأخيرة بين المنطقة النيجيرية ومنطقة وادي النيل في الوقت الذي أثبتت فيه كشف علماء الآثار أن نيجيريا الوسطى كانت تسكنها منذ ألفي عام على الأقل - شعوب ذات طابع غرب أفريقي زنجي لم يكونوا حتى ذلك الوقت يختلفون اختلافاً كبيراً في طريقة حياتهم عن بعض القبائل الوثنية المعاصرة.

ولقد وفدت بواعث الدم الجديد والأفكار الجديدة من منظمة الشمال عن طريق القوافل ووحدات الصحراء الكبرى. وظلت مراعي

السودان خلال فترات تاريخها المختلفة بما تنتجه أرضها من محاصيل وما تضمه مساحتها الشاسعة من قطعان الماشية وما تنتجه من قرى مستقرة ظلت هذه المراعي تجذب إليها دائماً أنظار قبائل البربر والقبائل الأخرى شبه العربية التي كانت تسكن الصحراء الكبرى وكثيراً ما أقامت بعض طوائف البدو الصغيرة التي تتميز بأنها كانت أحسن تسليحاً ونظاماً من المزارعين السودانيين كثيراً ما أقامت هذه الطوائف من نفسها حكماً لدول جديدة تفرض الإتاوات على السكان المستقرين في المناطق المجاورة لهم.

وقد ظهرت - بصفة خاصة - ثورتان سياسيتان عظيمتان في شمال أفريقيا خلال العصور الوسطى أدتا إلى وجود حركات قوية في الجنوب بين قبائل الصحراء لا تزال لها حتى الآن آثار يمكن أن نتبعها في نيجيريا وكان قيام مملكة كانم شرقي بحيرة تشاد في حوالي عام 800م على أيدي أسرة حاكمة من أصل أفريقي أبيض كان قيام هذه المملكة يعني ظهور نتيجة من النتائج غير المباشرة للفتح الإسلامي الأول لشمال أفريقيا في القرن السابع الميلادي. وبنفس هذا النوع من الأسلوب غير المباشر يمكن القول بأنه كانت هناك علاقة بين الهجمات البدوية التي أحدثت قلقاً واضطراباً على الأطراف الشمالية للصحراء في القرن الحادي عشر الميلادي وبين قيام أقدم ممالك الهوسا. وليس من شك في أن هذه الفترة الثانية من الاضطرابات في الصحراء كانت لها نتيجة أخرى أكثر أهمية. وفي عام 1090 ميلادية حين تحولت الأسرة الحاكمة في كانم إلى الدين الإسلامي استطاع الإسلام أن يسكب لنفسه جبهة ثابتة في منطقة السودان الأوسط. ولن نستطيع هنا أن نبرز مدى ما كان لدخول الإسلام إلى هذه

المناطق من أهمية تاريخية كبرى. فقد جاءت مع هذا الدين الجديد معرفة الكتابة التي جعلت من الممكن قيام دول ضخمة أكثر تنظيماً وكفاية في أساليب الحكم من غيرها كما رفع هذا الدين مستويات شعوب هذه البلاد من الناحية الأخلاقية والإنسانية وخلق علاقات حضارية وفكرية بين غرب أفريقيا وحضارات العصور الوسطى التي كانت على مستوى متطور راق.

وقد وصلت مملكة كانم - أول مركز لهذه القوة الحضارية الجديدة - إلى قمة أمجادها في ظل الملك دوناما ديبالييمي الذي استمر حكمه من عام 1210 حتى عام 1224 ميلادية ثم أخذت تتناقص بشكل ملحوظ في فترة المائة عام التالية نظراً لوجود منازعات خطيرة بين أعضاء الأسرة المالكة حتى وجد ماي عمر نفسه في أواخر القرن الرابع عشر عاجزاً عن الدفاع عن حدود مملكته أمام القوة الثائرة الجديدة، وأعني بها قوة الشعب الذي ينتمي أفراداه إلى جماعة البولالا Bulala التي كانت تعيش عند بحيرة فيتري Fitri ولذلك نقل عاصمته إلى برنو دولة المراعي الخصيبة التي تقع غربي بحيرة تشاد، وتبعه كثير من أفراد شعبه الذين كانوا لا يزالون أشبه بالجماعات البدوية تبعوه إلى هناك. وكان القرن السادس عشر هو بحق العصر الذهبي لمملكة برنو ذلك لأن إدريس الثاني الذي حكم من عام 1504 إلى عام 1526 قد تمكن من فتح كانم مرة ثانية بينما أكمل إدريس ألوما الذي تولى الحكم من عام 1580 إلى عام 1617 والذي يعتبر أول حاكم استورد الأسلحة النارية لبلاده من طرابلس أكمل توحيد الدولة التي سرعان ما اتسع نفوذها ناحية الغرب حتى أصبحت تمارس نوعاً من السيطرة والسلطان على منطقة واداي.

لقد كانت برنو دولة مغلوبة يقوم الحكم فيها على أساس استغلال طبقة صغيرة من المحاربين لسكان من الفلاحين الذين يشتغلون بالزراعة وليست لديهم وسائل متكافئة للدفاع عن أنفسهم ولم يحدث أن تغيرت طريقة حياتهم القديمة، طريقة حياة المجتمعات الريفية التي كانوا يعيشون فيها إلا تغييراً طفيفاً لا يكاد يذكر. فإن الزعماء التقليديين وكذلك كبار السن عندهم ظلوا يسيطرون على شؤونهم اليومية، وكان الملك يوزع الإقطاعيات الكبيرة ويقسم أقاليم البلاد على وزرائه وقواد جيشه مكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال وكان هؤلاء الوزراء والقادة ينظرون في بساطة إلى هذه الأراضي التي منحوا إياها على أنها مورد، من موارد الجزية التي يجب أن يأخذوها بالقوة أو بالتهديد بالقوة، كذلك كان الملك يتمتع بألوان من التكريم تشبه حد التقديس فهو يعيش في عزلة تامة وسط جو من الرسميات الدقيقة وقلما يظهر علانية بين أفراد شعبه، ومع هذا فلم يكن ظالماً ولا مستبداً لأنه كان خاضعاً في أمور الحكم لنصائح الاثنى عشر موظفاً الرئيسيين، ولأن الجهاز الفعال في الجيش كما كان الحال في أوروبا خلال العصور الوسيطة - كان مكوناً من أتباع السادة العظام الشخصيين، أما أساس اقتصاد المملكة فقد كان يعتمد على الإغارات على العبيد. ففي كل موسم من مواسم القحط والجفاف كان الفرسان المدرعون يوفدون إلى الجنوب في حملات متكررة لصيد العبيد من بين الشعوب الجنوبية المتخلفة. وفي بعض الأحيان كان الوثنيون العراة المسلحون بالسهام المسمومة قادرين على الدفاع عن أنفسهم ورد اعتبارهم، فقد قتل الملك إدريس ألوما الكبير بضربة فأس في إحدى هذه المناوشات، وكانت هذه الضحايا من العبيد

تشكل السلعة الرئيسية لتجارة هذه المملكة مع طرابلس كما كانت تمثل حلقة اتصال برنو مع العالم الأوسع التي على أساسها اعتمدت هذه المملكة في المحافظة على قوتها المادية وحضارتها الفكرية.

وبين برنو وصنفي على النيجر الأعلى تقع سهول بلاد الحوصة الخصيبة التي كانت تسيطر عليها إمبراطورية أو أخرى من هاتين الإمبراطوريتين ومع هذا فلم تقع تماماً في قبضة النفوذ السياسي في أي يوم من الأيام لأية واحدة منها. وقد قامت في أواخر العصور الوسيطة سلسلة من الدول أو الإمارات الصغيرة هي: دورا Daura وهي أقدمها جميعاً، وجوبير Gobir وكانوا kano ورانو Rano وكتسينا Katsina وزجزج Zegzeg (أي زاريا) وظلت هذه الإمارات كلها خلال تاريخها تشتهر برخائها الاقتصادي ومعرفتها إقامة المدن ذات الأسوار أكثر من شهرتها في الحروب، وربما كانت هذه الدويلات فروعاً تابعة لكانم وبرنو بدليل أن التنظيم السياسي كان يتشابه في كل منها من حيث كونه ذا طابع إقطاعي، ويبدو أن الحكام الأوائل كانوا من أصل بربري، لأن خلافة الحكم عند الفولاني كانت تقوم على أساس الصلة من جانب الأم وهو الأسلوب الذي كانت تتبعه قبائل البربر ولأن لغة الحوصا نفسها حين قام الباحثون بتصنيفها ظهر أنها أقرب إلى لغة البربر من أية لغة أخرى من لغات غربي أفريقيا.

على أن شعب الحوصا ليس قبيلة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة فهو شعب قد جاء نتيجة امتزاج ظل يحدث خلال عدة قرون بين جماعات قبلية وجنسية كثيرة مختلفة أخذت تنصهر في شكل ما أقرب ما يكون إلى

شكل دولة. وذلك بفضل ما كان لهم من لغة مشتركة واعتزازهم جميعاً بحضارة واحدة مشتركة. إلا أن هذه الجماعات لم تكن تمثل دولة بالمداول الدقيقة لهذه الكلمة فإن إحساسهم بالوحدة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يضع حداً للحروب الصغيرة المتكررة التي كانت تقع بين إماراتهم الصغيرة أو بخلق وحدة بينهم تجعلهم قادرين على الوقوف أمام جيرانهم ممن كانوا أقوى منهم بأساً ونفوذاً، فإن الزراعة كانت العمل العادي لمعظم أفراد شعب الحوصا حتى أصبحوا يتمتعون بمستوى عال من المهارة في هذا الميدان، وكانت مدنها أيضاً مراكز نشيطة للصناعات، فبالقرب من إمارتي رانو وكانو كانت تتم صناعة الحديد في سهولة عجيبة بل يقال أن مؤسسي كثير من مدن الحوصا كانوا من الحدادين، كما أن زراعة القطن ونسج الأقمشة وصبغها كانت تعتبر من الصناعات الهامة في هذه المدن وأصبحت صناعة الجلد الحوصوي مشهورة في كل مناطق شمالي وغربي أفريقيا.

وكان الحوصويون من أكثر الرحالة والتجار مغامرة. فقد كانت مدنها وهي في هذا أشبه بمدينة تمبكتو - تحتل موقعاً ممتازاً عند الطرف الجنوبي لواحد من طرق القوافل الصحراوية العظيمة وهو الطريق الذي كان يمتد من تونس ماراً بمدينة غات Ghat وغدامس وجبال أير Air حتى إذا ما انهارت مملكة صنفى أمام الغزو المراكشي في نهاية القرن السادس عشر تحول المجري الرئيسي للحركة التجارية مع شمالي أفريقيا شرقاً إلى بلاد الحوصا. وقفزت إمارة كتسينا بصفة خاصة إلى مكان الصدارة والشهرة باعتبارها مركزاً هاماً من مراكز التجارة والحضارة، وسرعان ما أصبح التجار

الحوصيون يسيطرون على النشاط التجاري في جميع أنحاء السودان الأوسط، وتضخمت جالياتهم في كل المراكز التجارية الهامة، بل وأصبحت اللغة الحوصوية هي لغة التخاطب العامة في الأسواق، إلا أن هذا التوسع في النشاط الاقتصادي قد جلب معه مع الأسف توسعاً في تجارة الرقيق والإغارة عليه، كان أبناء إمارة زاريا - المملكة الحوصوية التي تقع إلى أقصى الجنوب - من أكثر الحوصيين نشاطاً في هذا المجال.

ولقد دخل الإسلام أول ما دخل إلى إمارة كانو على أيدي شعب ألونجارا Wongara الذي هاجر إلى هذه الإمارة في القرن الرابع عشر من الجهات الغربية. ولكن تأصله في كل بلاد الحوصا لم يتم على نحو سريع، فإن إمارة كاتسينا لم تتحول إلى الإسلام إلا في خلال القرن السادس عشر، كذلك بقى عدد كبير من الحوصيين على وثنيتهم لفترة أخرى امتدت حوالي مائتي عام. ثم تغير الموقف الديني والسياسي كله تغييراً كاملاً حين ظهرت حركة الجهاد على أيدي الفولاني في عام 1804، ولا يزال أصل هذا الشعب وأعني به شعب الفولاني الرعوي الذي كان يتميز بدماء غير زنجية أكثر من معظم القبائل التي كانت تعايشه ولا يزال أصل هذا الشعب غامضاً إلى حد ما، ويبدو أن هذا الشعب كان يعيش أثناء القرون الأولى من الميلاد المسيحي على الشاطئ الشمالي للسنغال الأدنى. أما من أين أتوا قبل هذا .. وما إذا كانوا أساساً من أصل فارسي أو هندي الخ فهذه كلها مسائل حدس وتخمين أكثر منها تاريخاً واضحاً⁽⁶⁾.

(6) كلمة الفصل في هذا الموج من الآراء المتضاربة حول أصل الفولاني تتلخص فيما أجمع عليه علماء الأجناس أخيراً حين قرروا أن أصول هذا الشعب ترجع إلى أرومة مصرية بدليل شبههم القريب جداً من صور

ولقد بدأ شعب الفولاني في تاريخ مبكر يهاجر في أعداد كبيرة إلى مناطق منحني النيجر ودفعت هجراتهم السلمية ومعهم قطعانهم من الماشية دفعت بعضهم إلى الوصول عن طريق بلاد الحوصا إلى منطقة بحيرة تشاد بل وإلى أبعد منها، وكان ذلك في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي على الأقل.

وبقى الكثيرون منهم على الوثنية وأعمال الرعي يسيرون على طريقة الحياة التي لا تزال قائمة حتى اليوم بين شعب البوروروجي Bororogi أما الآخرون فقد سكنوا المدن واشتغلوا بالتجارة وحظى العلماء والأساتذة المسلمون بينهم بمكانة التجلة والتقدير نظراً لمعرفتهم الواسعة بثقافة الدين وقواعده، وكانوا شعباً نشيطاً قوياً يدفعهم بلا شك طموح كبير للحصول على السلطة السياسية التي حققها أقاربهم في القرب من ماسينا خلال القرن الخامس عشر، وفي فوتاتورو Futa Toro عند السنغال الأدنى في القرن السادس عشر وفي المناطق العالية لفوتاجالون Futa gallon خلال القرن الثامن عشر.

وفي حوالي نهاية هذا القرن (الثامن عشر) كانت تسود العالم الإسلامي حركة واسعة تهدف إلى بعث الدين الإسلامي وإعادته إلى ما كان عليه من مجد سابق وسرعان ما تبع ظهور الحركة الوهابية المتطرفة التي قامت في

المصريين المنقوشة على القبور من عهد الهكسوس فإنهم قد هاجروا من صعيد مصر واتجهوا إلى الغرب عن طريق بلاد المغرب ثم انددروا إلى المحيط الأطلسي حيث استقر بعضهم هناك بينما واصل بعضهم الآخر سيره حتى بلاد السنغال، وهم ينقسمون إلى قسمين فولاني جداً وهم الذين امتزجوا بغيرهم، وكاو فولاني وهم الذين احتفظوا بخصائصهم القومية. "المترجم"

الجزيرة العربية توسع عظيم لحركات دينية أخرى مثل التيجانية والقادرية في شمالي أفريقيا وهي الحركات التي نجحت في أن تبسط لنفسها نفوذاً شاملاً في السودان.

وتركزت حركة البعث الديني داخل بلاد الحوصا في الدعوة التي قام بها عثمان دان فوديو المعلم والمبشر الفولاني الذي أخذ يدعو إلى حركته أولاً في إمارة غويير، وكان حكام ممالك الحوصا التقليديون ينظرون إلى ما كان يحزره هذا الزعيم من مكانة سامية متزايدة بعين الشك والريبة حتى أن ملك غويير قد حاول في النهاية أن يوقف بالقوة والعنف نشاط حركة التبشير الإسلامية التي كان يتزعمها فوديو إلا أن رد فوديو على هذا الموقف من جانب ملك غويير كان إعلانه الجهاد (الحرب المقدسة) من أجل نشر الإسلام الذي سرعان ما حظى بتأييد معظم الجماعات الفولانية التي كانت تعيش في نيجيريا الشمالية. ولم يكن هذا الجهاد في بساط حرباً بين القبائل، فإن مما لا شك فيه أن الشيخ عثمان فوديو على الرغم من ادعاءات أعدائه كان مخلصاً في الدعوة إلى أهدافه الدينية الخالصة وكان هناك عدد كبير من أبناء الحوصة يؤيدونه ويناصرونه. ومن الواضح أيضاً أن الفضل في نجاح حركة فوديو يرجع إلى استنهاضها ضمير الشعب الفولاني الذي رفعته فيما بعد في خلال عشرين عاماً إلى مركز الطبقة الحاكمة التي تبسط نفوذها على المنطقة التي تعرف اليوم باسم نيجيريا الشمالية والكاميرون الشمالية. ولم تستطع دولة من الدول أن تقف أمام الفولاني في ذلك الوقت سوى مملكة برنو في ظل زعيمها الكامي.

وليس من شك في أن انتظام إمارات الفولاني تحت سلطان أمراء

سوكونو وجواندو يمثل المرحلة الأولى في ظهور وتطور نيجيريا الشمالية التي نعرفها اليوم إلا أن هاتين الإماراتين لم تستطعا في يوم من الأيام أن تبسّطا سيطرتهم الكاملة في المنطقة الفسيحة التي أخضعتهما لنفوذهما فإن القبائل الوثنية التي كانت تعيش في بايوتشي Bauchi وأداماوا Adamawa قد ظلت على استقلالها بل كثيراً ما حدث أن قامت هذه القبائل بإعلان حروبها على الفولاني ووصلت بقواتها إلى حصون مدنها. ومع هذا فلم يتخل أبناء الأسر الحاكمة القديمة من الفولاني الذين أبعدوا ونفوا لم يتخلوا أبداً عن الكفاح في أي مكان حلواً فيه. حتى أننا نستطيع أن نقول أن تاريخ معظم إماراتهم يمثل سلسلة طويلة من الثورات والحملات.

وحيث فتر حماسهم الديني عمت الفوضى كل البلاد وبدأت إمبراطورية الفولاني تنهار وتفقد الحكومة المركزية بالتدريج كل قوتها في السيطرة على أمراء الأقاليم أو منعهم من السلب والنهب وبذلك لم يصبح لسوكونو ما كان لها في نفوذ سابق.

دول غابات غينيا

ج. د. فاج

J.D. FAGE

حين ننظر نظرة عامة لتاريخ غينيا، وأعني بها منطقة الغابات الجنوبية غربي أفريقيا والتي تتاخم سواحل البحر، حين ننظر إلى تاريخها خلال الفترة التي تمتد من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر تبرز على الفور حقيقتان واضحتان أولاهما هي أن هذه الفترة كانت فترة تجارة رقيق الأطلنطي وهذا الجزء من أفريقيا هو الجزء الذي جاءت منه أغلبية الزوج الذين أخذهم الأوروبيون وذهبوا بهم إلى أمريكا للعمل في مزارعها هناك. ويقال أن تجارة رقيق الأطلنطي قد نقلت إلى أمريكا عدداً من العبيد يتردد بين خمسة عشر مليوناً إلى عشرين مليون أفريقي، ومن المحتمل أن يكون عشرة ملايين أفريقي على الأقل من هذا العدد قد تم تصديرهم من سواحل غينيا وحدها خلال فترة ربما امتدت مائتي عام ابتداء من حوالي عام 1640 فصاعداً حين كانت تجارة الرقيق على أشدها. على أنه ليست لدينا وسائل لمعرفة هذا التأثير الذي أحدثه خروج مثل هذا العدد من غينيا على مجموع سكانها في ذلك الوقت، غير أننا حين نضع في أذهاننا حقيقة واقعة، وهي أن هؤلاء الرقيق كانوا يختارون دائماً من الشباب ومن الرجال الأصحاء والنساء اللائي كن ذوات قيمة في سوق الرقيق فإن هذا

الاستنزاف المستمرة للقوة البشرية على هذا النحو كان له من غير شك آثار ضارة من الناحية الأدبية والمادية على حياة غربي أفريقيا. ولكن هذا الوقت - وهذه الحقيقة الواضحة الثانية - كان الوقت الذي ازدهرت فيه في غينيا ممالك زنجية يمكن مقارنتها من حيث عظمتها بالإمبراطوريات العظيمة الأولى التي قامت في منطقة السودان الغربي.

وأحب هنا أن أذكر شيئاً سريعاً عن أربع دول من هذه الدول وأعني بها إمبراطورية شعب اليوروبا المعروفة باسم إمبراطورية أويو ومملكة بنين التي كان يسكنها شعب الأيدو وكانت كل من هاتين الدولتين تحتلان ما يعرف الآن باسم نيجيريا الغربية، ثم مملكة داهومي التي أعارت اسمها للمنطقة الفرنسية الحديثة التي تتاخم حدودها حدود نيجيريا من جهة الغرب أما الدولة الرابعة فهي دولة أشانتي التي لا يزال موقعها قائماً حتى الآن إلى أقصى الغرب فيما يعرف اليوم بجمهورية غانا الحديثة.

وليس معنى هذا أن هذه الدول الأربع هي فقط الدول الأفريقية التي قامت في منطقة غينيا بل أن هناك دولاً هامة أخرى ازدهرت في نفس هذه المنطقة وفي نفس هذه الفترة أيضاً، ومن بينها مثلاً دولة أكوامو وهي المنبع الذي استمدت منه دولة أشانتي الكثير من معارفها. إلا أن هذه الدول الأربع كانت بلا شك أعظم دول غينيا على الإطلاق.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن تجارة الرقيق قد لعبت دوراً تدميراً في تاريخ هذه الدول، فقد كانت السبب في تحطيم مملكة بنين. كما كانت كذلك عاملاً مساعداً أدى بالإضافة مع تأثيرات الحملات المعادية إلى

انهيار إمبراطورية أويو، ولعبت تجارة الرقيق كذلك دوراً آخر في خلق ظروف سياسية شجعت على وجود نوع من التطور في هذه الدول.

ومع هذا فحين بدأت أوربا نشاطها التجاري خلال القرن الخامس عشر مع شعوب ساحل غينيا كانت دولتا أويو وبنين - وكل منهما فرع من حضارة الأيفي الشهيرة - كانتا موجودتين فعلاً في ذلك الوقت. وكانت دولة أويو تعتبر واحدة من مجموعة دول اليوروبا الصغيرة، كما أنها إحدى الدول التي تقع بعيدة عن البحر عند المنطقة التي يطلق عليها الآن اسم كاتونجا ومعروف أن عاصمتها كذلك كانت قريبة من النيجر الأوسط. وتكاد تنحصر معلوماتنا المتواضعة عن تاريخ هذه الدولة، فيما وصل إلينا من الأحاديث المتوارثة الشفوية، أما عن دولة بنين التي تقع على القرب من الساحل بين نهر النيجر ومدينة لاجوس الحديثة فإن لدينا عنها بالإضافة إلى ما وصل إلينا من روايات شفوية وصفاً قيماً تركه الرحالة الأوربيون ابتداء من نهاية القرن الخامس عشر فصاعداً.

ويحدثنا واحد من أوائل الذين كتبوا وصفاً لهذه الدولة، وهو الرحالة البرتغالي باتشيكو بيريرا عن وجود مدينة ذات أسوار يبلغ طولها (أي المدينة) ثلاثة أميال، وهي عاصمة لمملكة تحتل مسافة تمتد من الشرق إلى الغرب حوالي مائتين وخمسين ميلاً. ويقول باتشيكو أن هذه المملكة كانت في حالة حرب شبه دائمة مع جيرانها، ومن ثم كان يتوافر لديها عدد كبير جداً من الأسرى الذين كان البرتغاليون يشترون منهم ما يشاءون. ومما لا شك فيه أن بنين كانت تقوم فعلاً في خلال القرن الخامس عشر بعملية توسع عن طريق الغزو. وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف على وجه التأكيد

حقيقة الأسباب التي دفعت بهذه المملكة إلى الدخول في مثل هذه الحروب إلا أننا نستطيع أن نقول أن عمليات التوسع هذه قد جعلت من مدينة بنين عاصمة تجارية لمنطقة فسيحة الأرجاء. ولذلك فإن هذه المدينة بالذات هي التي جذبت أنظار البرتغاليين في أول الأمر باعتبارها المركز الذي كان تجارهم يستطيعون أن يستبدلوا فيه في سهولة ويسر بضائعهم بمنتجات هذه المنطقة من الفلفل والعاج وغيرهما من السلع الأخرى والرقيق كذلك، وهي أيضاً المدينة التي استطاعت جاليات التبشير البرتغالية أن تدعو فيها إلى الديانة المسيحية. ثم ظل الرحالة الأوروبيون بعد ذلك يكتبون تعليقاتهم عما كانت عليه هذه المدينة يومذاك من حيث حجمها ونظام منازلها المتراسة في صفوف دقيقة، وكذلك القصر الملكي الفخم بأقنيته الفسيحة وممراته الطويلة، وما كان فيه من تماثيل نحاسية رائعة ولوحات تصويرية أخاذة، ظلوا يكتبون هذه التعليقات حتى قامت سلسلة من الحروب الأهلية في منتصف القرن السابع عشر قضت على هذه المدينة وأقفرتها من سكانها.

ولقد كان السبب الظاهري لنشوب مثل هذه الحروب وحدوث مثل هذا الانهيار والتصدع لمدينة بنين هو قيام المنازعات الكثيرة حول خلافة العرش، ولكن الأسباب الحقيقية لكل هذا قد تكون أعمق من هذا قد تكون بسبب أن الجماهير قد انتشر بينها نفور متزايد من استمرار الحملات الحربية التي أصبحت لا تتعادل مكاسبها مع ما تأتي به من الدمار والخراب. فقد استقلت بعض المواقع الأمامية في إمبراطورية بنين ومنها لاجوس. وربما كان تزايد قوة إمبراطورية أويو سبباً آخر في انهيار

إمبراطورية بنين. لأن جزءاً كبيراً من صادرات بنين - كما يبدو - كان له سوق أساسية في بلاد
اليوروبا، أما بعد أن قامت إمبراطورية أويو هناك فإن التجارة قد بدأت تجد منافذ مستقلة
في البحر إلى الغرب من بنين عند مناطق أخرى مثل لاجوس وباداجري.

وتشير المعلومات القليلة التي نعرفها عن إمبراطورية أويو قبل القرن السابع عشر إلى
أنها كانت تتزاحم مع جيرانها الشماليين في حركة التنافس المستمر التي أدت إلى نشوب
حروب كانت الفروسية تمثل فيها أهم سلاح من أسلحتها .. دولة كانت تتطلع في صلاتها
بالعالم الخارجي إلى الشمال، أي نحو السودان وليس إلى الجنوب ناحية البحر، غير أن
تطورات جديدة هامة قد حدثت - كما تقول الأحاديث المروية التقليدية - أبان عصر الملك
أوبالوكون الذي لا بد وأن حكمه للبلاد قد كان عام 1600 ميلادية، هذه التطورات هي:
إدخال نوع من الملح الجيد مكان ذلك النوع الرديء من الملح الذي كان ينتج محلياً، وهو
الذي خلق علاقات مع الشعوب البيضاء (يقصد بها شعوب شمالي أفريقيا) كانت بداية
تحقيق فتوح في المناطق الجنوبية، إلا أن القصة التي صاحبت بداية توسع إمبراطورية أويو
نحو الجنوب، أو إلى داخل بلاد الغابات تشير إلى أن هذه التجارة كانت تصل إلى أويو عن
طريق الساحل وهي التي دفعت هذه الإمبراطورية إلى القيام بعمليات التوسع في هذا
الاتجاه.

وسرعان ما أصبح من الضروري وضع حدود معينة للتخوم التي كانت
تشارك فيها أويو مع بنين في الناحية الجنوبية الشرقية أما عند المنطقة
الجنوبية الغربية، فإن نفوذ جيوش إمبراطورية أويو كان قد أصبح له في

أواخر القرن السابع عشر صدى يشعر به الجميع بالغرب من البحر عن المنطقة التي أصبح يطلق عليها فيما بعد اسم داهومي، ولم تكد تأتي الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر حتى كانت أويو قد أصبحت إمبراطورية واسعة الأرجاء، تمثل كل من لاجوس وباداجري فيها مينائين رئيسيين لتجارة الرقيق لكل منطقة غربي أفريقيا.

وقد استهلت داهومي حياتها كدولة من مجموعة الدول الصغيرة. واقصد بها دول الفون والادجا والشعوب المتصاهرة الأخرى التي كانت جميعها تسكن المنطقة التي تقع مباشرة إلى الغرب من بلاد اليوروبا، وهي المنطقة التي ظلت خاضعة فترة طويلة من الزمن للنفوذ اليوروبي، غير أنه بدأ - مع زيادة تقدم جيوش أويو إلى الغرب - أن من المرغوب فيه خلق دولة تصل في قوتها إلى الحد الذي يمكنها من مقاومة الهجمات التي كانت تشنها جيوش أويو، ودفعت هذه الرغبة حكام داهومي في أول الأمر، أي في حوالي نهاية القرن السابع عشر إلى العمل على إقامة حكومة مركزية تأتي على نموذج حكومة أويو، إلا أن هذا الحلم أو هذه الرغبة لم تحقق على الفور، لأن داهومي ظلت تدفع الجزية لإمبراطورية أويو معظم سنى القرن الثامن عشر، ومع هذا فإن ذلك لم يمنع داهومي من أن تصبح دولة عظيمة على النحو الذي كانت تريده لنفسها، بل لم يمنعها كذلك من أن تصبح دولة تستطيع أن تقوم بغزواتها وإغاراتها داخل بلاد اليوروبا، أما عن عاصمة داهومي فقد كانت تقع على بعد حوالي سبعين ميلاً من البحر عند أيومي، وكانت شقيقة للدول التي كانت تقع إلى بعد من الجنوب .. دول مثل أردرا، ووايداه، التي أطلق عليها في القرن السابع عشر بسبب تجارة

الرقيق التي كانت تمارسها مع أوروبا الاسم المشئوم الكربة "ساحل الرقيق" ومع هذا فإن أجادجا ملك داهومي قد قام في أوائل القرن الثامن عشر بغزو هذه الدول والاستيلاء عليها، وكان دافعه إلى هذا - كما عبر عنه في اختصار روبرت توديس، أحد التجار الأوروبيين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة في هذه المنطقة يومذاك - كان دافعه "رغبة هذا الملك في التمتع بهذه السلع التي كان متعودا على شرائها من قبل من دول الساحل".

ولما كانت دولة داهومي قد قامت أصلاً كرد فعل للهجوم الذي كانت تشنه إمبراطورية أويو، فإن الاتحاد المعروف باسم اتحاد الأشانتي قد شهد نور الوجود في أواخر القرن السابع عشر في منطقة الغابات التي تقع خلف ساحل الذهب، هناك على الغرب من داهومي، وهو الاتحاد الذي ضم مجموعة الدول الصغيرة التي كانت تقع حوالي مدينة خماسي لمقاومة الضغط الذي كانت تحدته الدولتان المتجاورتان لها والأقوى منها وأعني بهما: روما ودينكيرا. وترسم لنا التقاليد الاشانتيّة صورة بلغ فيها من كياسة وذكاء سياسة حكم أوسى توتو ورئيس كهنته أوكومفوانوكي أن اعترف الجميع بكرسي أشانتي الذهبي على أنه المستودع لروح قومية تفوق كل الروابط المحلية، وبفضل هذه الفكرة وغيرها من الأفكار المماثلة أصبح تحالف الدول الذي قام من أجل هذا الغرض يشكل دولة واحدة .. ودولة وصل بها من القوة حداً جعلها تمتص جيرانها أو تخضعهم لها ثم تتقدم بعد ذلك لكي تفرض سيطرتها على الدول الواقعة شمالي الغابة.

وعلى الرغم من أن عمليات توسع مملكة داهومي كانت تتم تحت أعين التاريخ وسمعه. وقد قيل بأنه لم يكن هناك طريق في غربي أفريقيا يرتاده الأجانب في القرن الثامن عشر أكثر من هذا الطريق الذي يمتد من وايداه حتى أيومي، على الرغم من ذلك فإن قوة أشانتي المتزايدة كانت تحدث وراء ستار لم يستطع التجار البيض رؤيته، فقد ظلوا معزولين داخل حصونهم حتى بدأت الجيوش الأشانتية في أوائل القرن التاسع عشر عزمها على فرض سيطرتها على الجماعات الساحلية، ومع هذا فحينئذ في أذهاننا نماذج لمملكتي أويو وداهومي وتشاركهما في هذا أيضاً مملكة أكوامو، نرى أن الدافع الاقتصادي لعمليات التوسع التي قاما بها كانت أمراً واضحاً، أما مملكة أشانتي فقد استطاعت أن تسيطر على تجارة الأراضي الداخلية.

ومن ثم أخذت تعمل على خلق مداخل مباشرة لها توصلها بسهولة إلى الأسواق الساحلية.

ولربما كان من باب الغباء أن نفترض أن نمو هذه الدول العظيمة إنما يرجع أساساً إلى رغبتها في احتكار تجارة الرقيق، فإن أصول شعوب كل من أشانتي وداهومي توضح أهمية ومغزى العوامل السياسية المحلية ويمكن أن نفترض أن هذه العوامل أيضاً قد كانت لها كذلك أهمية عند شعوب كل من مملكتي أويو وبنين، ولابد أنه كان لهذه الدول الأربع أيضاً جذور حضارية وأيديولوجية، مثل مفهوم الملك المقدس الذي جاء إليهم من شعب الايفي أو الفكرة التي تكمن وراء الكرسي الذهبي عند الأشانتي الخ. هذه الجذور كانت من الحيوية بحيث أدت إلى وجود أساليب معقدة

وشاملة لنظام دولة واسعة وحكومة ضخمة، ولكن من الصعب في الوقت نفسه أن ننكر أن عمليات تجارة رقيق الأطلنطي على شواطئ غينيا قد كانت لها علاقة كبيرة بتوقيت وشكل ظهور هذه الدول.

وليس من شك في أن مفهوماتنا الحديثة عن الإنسانية تجعلنا نميل - حين ننظر إلى تجارة الرقيق اليوم، إلى أن نؤكد كلمة رقيق أكثر من كلمة تجارة. ولكن على الرغم من كل الشرور المادية والأدبية التي تكمن في تجارة الرقيق، فإن علينا ألا ننسى أن تجارة الرقيق وتصديرهم لم تكن بالمفهوم الذي قد يتصوره البعض، بل أن الإنصاف يقتضينا أن نقول أن الأفريقيين الذين كانوا يبيعون الرقيق لم يكونوا يفعلون ذلك بقصد امتهان الإنسان، وإنما كانوا يبيعونهم للأوروبيين لقاء الحصول على الأسلحة النارية التي يقوون بها جيوشهم ودولهم، وليس هذا فحسب، بل أنهم كانوا يفعلون ذلك أيضاً للحصول على البضائع التي تفيدهم في حياتهم الاجتماعية مثل الأقمشة والآلات والمواد الخام المطلوبة لصناعة الحديد المحلي والمصانع الأخرى وغير ذلك من المواد التي تحتاجها مجتمعات شديدة الرغبة في أن تزيد من ثرواتها وقوتها لكي تستطيع الوقوف أمام حضارة أوروبا وأفكارها.

وإذا كنا اليوم ننظر إلى ما كانت تفعله منطقة غرب أفريقيا من تصديرها لبعض أبنائها إلى الخارج على أنه عمل غير إنساني، فإن علينا أن نتذكر أن بريطانيا في خلال القرن التاسع عشر حين كانت في أوج ثرائها وقوتها - وهو ثراء وقوة لم يكن لهما مثيل سابق في تاريخها من قبل - فعلت ذلك أيضاً حيث أرغمت عدداً لا يقل عن تسعة عشر مليون مواطن من أبنائها بالهجرة عبر البحار في ظروف لم تكن بحال من الأحوال

أحسن ولا اسعد من الظروف التي نقل في ظلها رقيق غربي أفريقيا.

ومع هذا فليس مما يدهش أن نعرف أن التوسع التجاري الهائل في أسواق ساحل غينيا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر - وإن كان رواجها في بعض الأحيان يرجع إلى الطلبات المتزايدة على تصدير الأيدي العاملة من جانب أمريكا - قد ساعد على نمو إمبراطوريات غينية جديدة لم تكن كسابقتها من دول السودان الغربي تتجه في إقامة أسسها الاقتصادية لتدعيم ثروتها وقوتها على مناطق الشمال تجاه الصحراء، بل كانت تتجه إلى الجنوب ناحية الأطلسي.

@booka

مملكة الكونغو القديمة

س. ر. بوكسر

C.R. Boxer

كانت مملكة الكونغو القديمة تمتد أصلاً على طول كل من شاطئ نهر زايري Zaire أو الكونغو إلى بعد المسافة المعروفة الآن باسم ستانلي بول Stanley Pool وبعد أن اكتشف البرتغاليون هذا النهر العظيم في عام 1482 لم تعد لملك الكونغو أية سلطة فعالة على المناطق الواقعة شماليه. ولقد أقام هذا الملك عاصمته عند مبانزاكونجو Mbanza Congo على بعد حوالي ثمانين ميلاً جنوب النهر، وعلى بعد 150 ميلاً من البحر بالطريق البري، وكان هذا المكان يقع تقريباً في وسط المنطقة التي كان هذا الملك لا يزال يسيطر عليها. في شبه مربع يحيط به البحر من ناحية كما تحيط به على التوالي من النواحي الأخرى أنهار زايري، بينجو وكوانجو Kwango Bengo.

ولم تكن الملكية في الكونغو ملكية وراثية. فقد كان يخلف الملك عادة بعد وفاته أي ابن من أبنائه ولكن الخلافة كانت في أغلب الأحيان موضع النزاع والتنافس. وكان المطالب بالعرش بعد أن ينتصر ويفوز بكرسي الملك يقوم بقتل منافسيه ومن معهم من أنصارهم الكبار.

وكان هذا الملك يتمتع نظرياً أو شكلياً بسلطة مطلقة على حيوان

وأراضي وممتلكات شعبه ولكنه من الناحية العملية كان مفروضاً عليه أن يولي اهتماماً بالغاً لآراء النبلاء البارزين ووجهات نظرهم. وكان من أكثر هؤلاء النبلاء أهمية حكام المقاطعات الست التي تنقسم إليها مملكة الكونغو، والذين كانوا مسؤولين عن جمع الجزية الإقليمية من الرافيا Raffia (قماش النخيل) والودع أو الكوري Cawry و سلع أخرى وتقديمها إلى العاصمة. وكان هذا الودع أو الكوري يمثل الشكل الأساسي للعملة الكونغولية، وكانت جزيرة لواندا Luanda التي تشكل اليوم عاصمة أنجولا البرتغالية أهم مصدر لهذا المحار البحري.

ولقد كان أفراد قبائل البانتو - الذين كانوا خاضعين لحكم ملك الكونجو - يعرفون طريقة صناعة المعادن بما في ذلك الحديد والنحاس. وكانوا يتميزون بنوع خاص من المهارة الفائقة في صناعة الفخار ونسج الحصر كذلك وقد أثارت مهارة هؤلاء البانتو في هذه الميادين دهشة البرتغاليين الأوائل وإعجابهم الشديد كذلك استأنسوا بعض أنواع الحيوانات من أمثال الخنزير والأغنام والدواجن وفي بعض مقاطعات أخرى استأنسوا أيضاً الماشية، وإن لم يكونوا ينتفعون بألبانها وزبدتها وجبنها أما بيوتهم التي كانوا يعيشون فيها فقد كانت عبارة عن أكواخ مبنية من مواد متواضعة يقيمونها على شكل مربعات.

وتكاد تنحصر الآلات التي تعودوا أن يستخدموها في الزراعة ... أن تنحصر في الفأس والبلطة وكانت القوانين والعادات القبلية هي التي تحكم حياة البانتو اليومية وكان للسحرة والأطباء مكان مرموق وإجلال عظيم داخل المجتمع البانتوي. ولم يكن الكونغوليون يعرفون الكتابة، ويبدو أيضاً

أنه لم تكن لهم علاقات مع العناصر الأخرى الأكثر منهم تقدماً، وأعني بها العناصر التي كانت تعيش على الامتدادات العليا لنهر النيجر حيث كانت توجد جامعة تمبكتو المزدهرة في القرن الخامس عشر الميلادي.

ولقد وصف المكتشفون والرواد البرتغاليون الأوائل المواطنين البانتويين من سكان هذه المملكة بأنهم أكثر وعياً وذكاء من أي عنصر زنجي آخر التقوا به. فقد أظهر الكونغوليون في أول الأمر استعداداً طيباً لإتباع أساليب الحضارة الغربية، خاصة في عهد حكم الملك دون الفونسو Don Alfonso الذي دام عام 1506 إلى عام 1548. وهذا الملك - كما يفهم من اسمه - قد تحول إلى المسيحية، بل وبذل مجهوداً كبيراً لغرس هذا الدين الجديد في مملكته ... لقد أراد هذا الملك أن يجعل من شعبه شعباً أوريبيا في وسائل الحياة وطرق المعيشة.

ولم تكن السفارات والبعثات البرتغالية إلى الكونجو تضم القسس والرهبان فقط بل كانت تضم كذلك عدداً من العمال المهرة والصناع الفنيين مثل الحدادين والبنائين والعمال الزراعيين. وحتى من الألمان أيضاً هاجر إلى الكونجو في عام 1492 اثنان من عمال المطابع متطوعين ومعهما ماكينة طباعة، لكن التاريخ لا يحدثنا بشيء عما إذا كان هذان الرجلان قد قاما بطباعة أي شيء في منطقة أفريقيا الاستوائية قبل أن تنتهي حياتهما .. غير أن طائفة من الكتب ومعظمها من الكتب ذات الطابع الديني كانت تصدر بصفة منتظمة من البرتغال إلى بيانزاكونجو العاصمة.

وفي بداية حركة الاندفاع العارمة الأولى أرسلت إلى الكونغو مجموعة من السيدات البيض لكي يقمن بتدريس الاقتصاد المنزلي على النحو الذي كان معمولاً به في أوروبا يومذاك للسيدات السود من مواطنات البلاد، كما أرسل إلى لشبونة عدد من شباب الأسر النبيلة الكونغولية لتلقي العلم هناك خاصة في كلية سانتوايو التي كانت تضم معظم هؤلاء الشباب. ثم حدث في عام 1513 أن زارت البابا بعثة كونغولية على رأسها اثنان من سلالة البيت الملكي الكونغولي حيث تم تعميم أحدهما هناك ثم تكريسه مطراناً لأوتيكا تحت إلهام عمانويل ملك البرتغال. وعاد إلى الكونغو في عام 1521 ومعه عدد آخر من الزنوج الذين تم تعيينهم في وظائف قسس. ووجد حينذاك أن الدعوة إلى المسيحية في الكونغو لم تكن موضع حماس والده بل أن عمته التي كانت تبلغ من العمر سبعين عاماً قد فتحت مدرسة خاصة تدرس فيها للفتيات الكونغوليات.

ولقد تعلم دون ألفونسو اللغة البرتغالية قراءة وكتابة وكان يعكف على الدراسة بها في بعض الأحيان إلى الحد الذي كان ينام فيه وفي يده الكتاب من شدة الإنهاك والتعب. وأقام بلاطه على نمط بلاط لشبونة فمنح الزعماء والنبلاء ألقاباً مركيز ودق وكونت الخ وأنشأ سكرتيرية برتغالية، وقلد الإتيكيك البرتغالي حتى في ملبسه. ودرس القوانين البرتغالية في مراجعها الأصلية، وكان ينتقد العقوبات التي وقع على الجاني بسبب ارتكابه عملاً صغيراً، وفي يوم من الأيام سأل المبعوث البرتغالي مازحاً: كاسترو ما هي عقوبة الشخص الذي يضع قدميه على الأرض في القانون البرتغالي؟

وكان يشرف على بناء الكاتدرائية وبعض الكنائس الحجرية الأخرى في عاصمته، ويشجع الشعب على إقامة الكنائس والمدارس البسيطة المبنية من الأخشاب المتواضعة في مملكته.

كما أصبح يطلق على مبانزاكونجو - التي تسمى الآن ساويسلفادور - باللغة الوطنية اسم أكونجوديانجو نجو Ekongo dia Ngungo ومعناها "مدينة أجراس الكنيسة".

وعلى الرغم من أن كل الأعمال التي قام بها هذا الملك الكونغولي قد تلاشت بموته. فإن ذكره لا تزال حية. فقد كتب أحد المبشرين الرومان الكاثوليك في الكونغو عام 1889 يقول: "إن أي زنجي من أبناء الكونغو لا يعرف من أسماء ملوكه سوى ثلاثة منهم فقط هم: الملك الحاكم وسلفه والملك دون ألفونسو الأول".

ويدعى بعض المؤرخين أن البرتغاليين خلال هذه الفترة، بل وخلال فترة طويلة أخرى بعد ذلك لم يحاولوا أن يستحوذوا على السلطة السياسية في مملكة الكونغو أو أن يفرضوا نفوذهم فيها بقوة السلاح، بل أنهم قد ذهبوا إلى هناك لنشر الديانة المسيحية والحضارة الغربية عن طريق هيئات التبشير والمبعوثين الدبلوماسيين والفنيين الزائرين وكانوا يعاملون ملك الكونغو كحليف لا كتابع.

وهنا نتساءل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن لم تصبح مملكة البانتو هذه مملكة غربية في طابعها ونظامها منذ أربعة قرون ونصف حين كان ينظر كل من الملوك الأوربي والأفريقي إلى هذه العملية على أنها موضع الرغبة

من جانب كل منهما؟ ...

الأسباب لذلك كثيرة متعددة ... ومن الممكن أن نلخصها هنا في سرعة عاجلة:-

أولاً: لم يوجد العدد الكافي من المبشرين والفنيين البرتغاليين الذين يمكنهم نشر التعليم الديني والفني بين أبناء الكونغو بطريقة إيجابية مثمرة، وكثيراً ما طالب الملك ألفونسو بتزويد بلاده بأعداد من هؤلاء المبشرين والفنيين ولكن الأفواج التي جاءت منهم كانت قليلة للغاية. وحتى معظم الذين وصلوا إلى الكونغو سرعان ما لقوا حتفهم - مثل الطباعة الألمانين - نظراً لعدم ملاءمة جو المنطقة الحارة لهم، ولم يكن أصل علاج حمى الملاريا وغيرها من أمراض المناطق الحارة معروفاً يومذاك.

ثانياً: كان معظم الذين حضروا إلى الكونغو من النماذج المهزوزة التي ليس لديها إحساس حقيقي برسالتها الدينية، لأن الإحساس المعنوي بالروح الكهنوتية كان في حالة من الانحطاط التي يرثي لها أثناء الفترة الأولى من القرن السادس عشر في البرتغال وكذلك في مختلف دول أوروبا أيضاً.

ثالثاً: كانت التزامات البرتغال الواسعة المتزايدة فيما وراء البحار بعد اكتشاف الطريق البحري إلى الهند وجزر التوابل وكذلك قيامها بالحروب في مراكش وفي الوقت نفسه بذلها جهوداً جبارة لاحتلال البرازيل، كان كل ذلك سبباً في صرف عنايتها واهتمامها عن الكونغو أولاً. فقد كان ملك البرتغال جون الثالث مثلاً الذي استمر حكمه من عام 1521 حتى عام 1557 لا يبدي اهتماماً كبيراً بالكونغو. وهو ميدان التبشير المأمول،

وكثيراً ما كان هذا الملك البرتغالي يترك طلبات ملك الكونغو وخطاباته دون أن يرد عليها ربما عدة سنوات، وحتى عندما كان يجيب له طلباً أو يحقق له رغبة كان ذلك قليلاً وبعد فوات الأوان.

وإلى جانب هذه الأسباب السابقة التي أدت إلى فشل البداية المرجوة لنشر المسيحية والحضارة الغربية في الكونجو كان هناك من غير شك سبب رئيسي آخر تمثل في ظهور العلاقة الوثيقة التي نمت بسرعة بين رجال الإرساليات وتجار الرقيق. وهذه قصة أخرى لا يتسع لي المجال هنا لسرد كل تفاصيلها.

إلا أنه على الرغم من وجود كل هذه العقبات التي ذكرناها آنفاً لا يمكن أن نقول أن جهود البرتغاليين الأوائل قد ضاعت في يوم أو حتى في جيل واحد ففي استطاعتنا هنا اعتماداً على الأوصاف التي ذكرها بعض الذين استوطنوا مملكة الكونغو القديمة أو زاروها من الأوروبيين في عام 1588 أو بعض الرهبان الإيطاليين الذين كتبوا لنا عنها في عام 1649 في استطاعتنا أن نقول أن "مدينة أجراس الكنيسة" قد ظلت لفترة طويلة من الزمن مدينة أجراس الكنيسة فعلاً وكان التاجر البرتغالي ديواري لوبيز يقدر عدد سكانها باعتبارها العاصمة في ذلك الوقت بـ 100,000 (مائة ألف) نسمة، على الرغم من أن القصر الملكي وكاتدرائية المدينة كانا المبنيين الرئيسيين فيها فقط وكانت منازلها عبارة عن أكواخ مبنية من الطين مسقوفة بالبوص.

ويقول هؤلاء الذين شاهدوا شعب الكونجو في القرن الخامس عشر

أو الماكسي كونجو Muxi-Congo كما كانوا يطلقون عليهم - إن أفراد هذا الشعب كانوا أكثر تفوقاً من حيث بنيتهم الجسيمة وقدراتهم العقلية من كل طوائف الزنوج الأخرى.

وأعجب الرهبان الإيطاليون بما كان عليه هذا الشعب في حياته اليومية من روح المرح والبهجة التي كانت تتسم بالطابع الفلسفي وبزهدهم الحقيقي في التهافت على الثروة أو الأشياء الدنيوية الأخرى.

وعلى الرغم من أنهم ظلوا يحتفظون بأساليبهم البدائية في الزراعة فإنهم نجحوا في زراعة الحبوب ونبات الكسافا Manioc وفصائل الموالح مثل البرتقال والليمون واللارنج والفاكهة والبطاطس وغيرها من نباتات حديثة أخرى.

كما تعلم المحاربون منهم طريقة استخدام البنادق، إلا أن ملك الكونجو يومذاك لم يكن يسمح لأحد بحملها أو استعمالها إلا لأفراد حرسه أو للجماعة التي كان منوطاً بها عملية الدفاع عن المستنقعان الشرقية ضد هجمات وغزو الجاجاز⁽⁷⁾ Jagas وكان القضاء يسير في مملكة الكونجو القديمة طبقاً للقوانين والعادات القبلية مادام النزاع محصوراً بين الكونغوليين أنفسهم أما النظر في القضايا التي تكون بين برتغالي وكونجولي فقد كان ينظر فيها القاضي البرتغالي المقيم إذا كان صاحب الشكوى أفريقياً وينظر فيها القاضي الكونجولي إذا كان صاحب الشكوى أوريبيا.

وفي القرن السابع عشر ساءت العلاقات بين ملوك الكونجو

(7) الجاجاز يقال أنهم جماعة من أكلة لحوم البشر المتجولون لا يعرف أصلهم على وجه التحديد (المترجم).

والبرتغاليين الذين كانوا موجودين في أنجولا، ولم يأت القرن الثامن عشر حتى انتهت هذه العلاقات السيئة إلى حرب واضحة مكشوفة.

ويرجع تاريخ الانهيار الحقيقي الذي قضى على مملكة الكونجو إلى معركة أمبيولا التي وقعت في عام 1665 ومات فيها ملك الكونجو وهو يدافع عن بلاده ضد نفوذ البرتغاليين وسيطرتهم .

@booka

جنوب الكونغو

ج. فانسينا

J. Vansina

تغطي منطقة قلب أفريقيا الوسطى سلسلة من الغابات الضخمة التي تتخللها أنهار متعرجة تنساب في تكاسل تجاه نهر الكونغو. وتسكن هذه المنطقة مجموعة من القبائل الصغيرة التي لم تستطع في يوم من الأيام أن توحد نفسها في دول، ويبدو أنها ظلت تعيش حوالي مائة عام بالطريقة التي لا تزال تعيش بها. ويعتبر تاريخهم تاريخاً لهجرات جماعات صغيرة كانت تحط رحالها هنا وهناك على طول منطقة الغابة. ولكن هذا الوجه ليس سوى وجه واحد من صورة أفريقيا الوسطى. فجنوبي هذه الغابة يمتد حزام السافانا الضخم من غربي الساحل إلى منطقة البحيرة. أما السهول المتدحرجة فتغطيها الحشائش الطويلة، بينما ترى مناطق الأشجار تحيط بأطراف الأنهار عند الوديان .. وهنا وفي هذه المنطقة كان الإنسان يستطيع أن ينتقل من مكان إلى آخر في سهولة ويسر، وهنا أيضاً وفي هذه المنطقة ازدهرت بعض الزعامات القبلية والممالك المنظمة التي كانت مملكة الكونغو واحدة منها. إلا أن هذه المملكة بالذات وأعني بها مملكة الكونغو قد كان لها مصير معين تميزت به عن سواها نظراً لقيام علاقات مباشرة بينها وبين البرتغاليين خلال القرن الخامس عشر وبعده، في الوقت الذي لم

تكن فيه الممالك التي كانت تقع شرقي نهر كوانجو تحت أي نفوذ أوربي مباشر قبل عصر ستانلي.

وقد ظهرت خلال العصور الوسطى، بل ربما قبل هذه الفترة أيضاً دولة كانت تقع في المنطقة القريبة من بحيرة كيزالي Kisale عند أعالي نهر الكونغو. وفي هذه المنطقة اكتشف علماء الآثار مجموعة من المقابر (جبانة) تمتد عدة أميال على طول شاطئ هذا النهر وقد دفنت فيها جثث الموتى ومعها آنياتها وحليها المصنوعة من المواد النحاسية والحديدية مثل الأحزمة والدبابيس وما يعرف باسم صليب كاتنجا، وهو الصليب النحاسي الذي ظل الأهالي هناك يستعملونه على أنه عملة التداول فيما بينهم.

وتوضح الآثار التي تم العثور عليها أن الناس في ذلك الوقت كانوا يصنعون الأحزمة النحاسية وأن نوعاً من التجارة قد قام وازدهر في هذه المنطقة. ويشهد حجم هذه المقبرة أو الجبانة على أنها كانت تقع في وسط المملكة، وهذا أيضاً ما تقول به دائماً كل الروايات الشفوية المأثورة عن قبائل اللوبا Luba Tribes التي تسكن هذه المنظمة.

كذلك تؤكد الروايات المأثورة أن هذه المملكة قد قامت أول ما قامت في منطقة كيزالي، وأن سكانها كانوا من اللوبا، إلا أن الطبقة الحاكمة فيها كانت من قبيلة السونجي Songye Tribe التي تعيش اليوم في شرقي إقليم كاساي، وقد استطاع شعب اللوبا بعد فترة ما من الزمن أن يتحرر من سيطرة السونجي وأن يقيم دولة مستقلة أطلق عليها اسم "إمبراطورية اللوبا الثانية" وأخذت هذه الإمبراطورية تتوسع شيئاً فشيئاً حتى أصبحت

تضم معظم منطقة كاتنجا وفي الوقت نفسه أدخل اللوبا فكرة الملكية والأساليب الفنية الخاصة بتنظيم الدولة إلى اللوندا Lunda المجاورين لهم.

كل هذا حدث في وقت ما قبل القرن السابع عشر. أما خلال هذا القرن فقد أسس شعب اللوندا إمبراطورية فسيحة تمتد من نهر كوانجو Kwango في الغرب حتى بحيرة ميو في الشرق وتضم إليها منطقة واسعة من بلاد أنجولا وروديسيا وكاتنجا وكوانجو، إلى جانب ذلك كان شعب اللوندا يمثل طبقة الحكام والسادة في كل من ممالك Bemba وروتسي Rotse في روديسيا وزعامات الأفيمبونو The avimbundu في أنجولا، وعدد كبير آخر من الدول الصغيرة التي كانت قائمة في منطقة كوانجو بالكونغو. ولم تكد تأتي الأيام الأخيرة من هذه الفترة حتى كانت دول اللوبا واللوندا تتناثر هنا وهناك في كل مكان من منطقة السافانا كلها.

وقد ساعد التطور السياسي الذي حققته هذه المنطقة على إنشاء سلسلة طويلة من الطرق التجارية تبدأ من لواندا Loanda على الساحل الغربي حتى قلب إمبراطورية لوندا Lunda في كاتنجا، ومن هناك أيضاً إلى - بحيرة ميو وإلى شرق الساحل الذي يقع في موزمبيق، وهناك طرق أخرى تربط حزام النحاس ومستودعات ملح كاتنجا ليس فقط بمراكز إمبراطوريتي لوبا - ولوندا بل تربطها كذلك ببعض مناطق الزعامات القبلية في كاساي. وقد كانوا يحملون معهم - معظم المحاصيل الأمريكية التي أدخلها البرتغاليون إلى أفريقيا .. ومعنى هذا أن الذرة وحب العزيز والطماطم والتبغ وغيرها من المحاصيل المشابهة الأخرى قد وجدت لنفسها طريقاً إلى كل مناطق داخل أفريقيا، وأصبح نبات الكسافا Manioc يمثل

الغذاء الأساسي لمعظم هذه الشعوب، ولم تعد سمات الحضارة الأوربية هي وحدها التي عرفت طريقها على طول هذه الطرق، بل أن عناصر الحضارات المحلية المختلفة قد انتشرت أيضاً وأصبحت مقبولة في مناطق أخرى.

وأصبح دور هذه الطرق التجارية أثناء القرون التالية أكثر أهمية عن ذي قبل، فقد أخذ التجار المولدون الذين كان يطلق عليهم البرتغاليون اسم بومبيروس Pomberos يدخلون في كل يوم مزيداً من السلع الأوربية، وأخذت القبائل التي كانت تعيش على أطراف المستعمرات البرتغالية في أنجولا تزداد تأثراً بالحضارة الأوربية كما أصبح شعب أوفمبوندو ovimoundu يتحكم في النهاية في احتكار العمليات التجارية في مناطق الداخل. ونجحت دولة جديدة كان يطلق عليها اسم دولة شو Chokwe بفضل ما كان لديها من البنادق في أن تقضي على إمبراطورية لوندا في أواخر القرن التاسع عشر، إلا أن إمبراطورية لوندا هذه قد استردت أنفاسها مرة أخرى واستطاع شعبها أن يحرر بلاده من قبضة دولة شو كوي وفي الوقت نفسه استطاعت جماعة أخرى من المحاربين المزودين بالبنادق والذين جاءوا من مناطق شواطئ بحيرة فيكتوريا تيانزا في تنجانيقا أن تقضي على حكومة إمبراطورية لوبا، وكان من أسباب نجاح هذه الجماعة في إنزال هذه الهزيمة بشعب لوبا هو أنها تتبععت إحدى الطرق التجارية في زحفها وأنها كانت أكثر تفوقاً في أسلحتها ومعدات الحربية. وسرعان ما ظهر الأوربيون في هذه المناطق عقب وقوع هذه الأحداث مباشرة وأخذوا يتقاسمون بينها بين أنفسهم.

وهكذا يمكن أن نقول أن حضارة كل من إمبراطوريتي لوبا ولوندا قد انتشرت في منطقة فسيحة جداً ولكن نفوذ حضارتيهما على مناطق الحدود بين الغابة وأراضي السافانا قد ظل نفوذاً باهتاً وضعيفاً ففي هذه المناطق وعلى نهري كاساي وسانكورو Sunkuru عند أطراف الغابات كانت تعيش مجموعات من شعوب صغيرة تنتظمها زعامات قبلية متواضعة. وقد استطاعت واحدة منها أن تنمو وتتطور حتى أصبحت مملكة ذات حضارة قومية خاصة بها. وهي حضارة لا نستطيع أن ننكر بحال من الأحوال أنها أكثر نقاء وروعة من حضارة كل من إمبراطوريتي لوبا ولوندا، هذه المملكة هي مملكة كوبا Kuba التي لا يجهل أحد تاريخها. وسنحاول هنا أن نلقي ضوءاً سريعاً عليها لكي نتبين كيف استطاعت حضارة أفريقيا أن تطور نفسها من خلال قبولها حضارة أجنبية عليها وكذلك من خلال تطور داخلي فيها.

من المعروف جيداً أن معظم أفراد شعب مملكة كوبا قد وفد من المنطقة الوسطى لغرب الساحل أي من المنطقة التي يطلق عليها الآن اسم جابون Gabon فحين نزل البرتغاليون في منطقة الكونغو الأدنى فر هذا الشعب الكوبي إلى الأجزاء الواقعة شرق ستانلي بول Stanley Pool حيث استقروا في مناطق صيد الأسماك الصغيرة وفي قرى صيد الحيوانات حتى منتصف القرن السابع عشر، ثم كان عليهم بعد ذلك أن يفروا من إغارات عصابات الجاجاز المحاربة التي غزت مملكة الكونغو فيما بعد، فاتجه صيادوا السمك - أي الذين كانوا يسكنون مناطق صيد السمك - إلى مناطق أعلى المجرى النهري حيث استقر بهم المقام في المنطقة التي تقع بين

نهري كاساي وسانكورو بينما وصل صيادوا الحيوانات - أي الذين كانوا يسكنون قرى صيد الحيوانات - إلى نفس هذه المنطقة عن الطريق البري، وفي هذا الجزء الذي يقع بين نهري كاساي وسانكورو وابتداء من القرن السابع عشر فصاعداً قامت دولة أفريقية جديدة. وكان أفراد شعب هذه الدولة الجديدة حين وصلوا إلى هذه المنطقة يعيشون أساساً على صيد الحيوانات والأسماك على الرغم من أنهم كانوا يزرعون أيضاً بعض أشجار الموز. وقد تعلموا زراعة الذرة العويجة Millet من السكان الأصليين الذين دانوا موجودين هناك، إلا أنهم لم يقبلوا في حماس على زراعة هذا النوع من المحاصيل الزراعية، كذلك عرفوا صناعة الحديد والنحاس التي يحتمل أنهم كانوا يحصلون على معادنها في ذلك الوقت من التراب المعدني الموجود عند منطقة الكونغو الأدنى ومن الممكن أنهم عرفوا أيضاً طريقة نسج الألياف، إلا أن ذلك أمر مشكوك فيه لأن الروايات المأثورة عنهم تقول أنهم كانوا يرتدون ثياباً مصنوعة من قماش لحاء الأشجار. وكانوا منظمين في جماعات صغيرة، وحدث أن انتخبت إحدى هذه الجماعات وهي جماعة البوشونج Bushong من بينها - وكان ذلك أثناء هجرتها - زعيماً لهم هو "قبطان الزوارق" وبمجرد أن استقرت هذه الجماعة في موطنها الجديد تحولت سلالة هذا القبطان إلى ملوك، وكان هؤلاء الملوك ينتخبون أولاً بواسطة رؤساء العشائر الذين كانوا يرافقون الملك في رحلاته. وكان لهم في قوة السلطة والنفوذ بحيث كانوا يستطيعون خلع هذا الملك وعزله حين يشاءون، كان هذا الملك مجرد ناطق رسمي باسم جماعته إلا أن التطورات الداخلية سرعان ما أدت إلى ظهور حكم ملكي حقيقي. فأصبح الملك وراثته في فرع من

فروع الأسرة وتغيرت قواعد الخلافة الملكية فلم يعد عزل الملوك أمراً ممكناً كما كان من قبل، كذلك تطورت مراسم الدولة فأصبح على كبار رجال العشائر أن يقسموا يمين الولاء والإخلاص للملك عند التنصيب وأن يقدموا له زوجة تذكراً لهذه المناسبة، ثم تطور نظام التابعين فتحوّلت جماعات زعماء العشائر إلى مجموعة من المجالس، وظهرت في الدولة مناصب رسمية جديدة وأصبح الملك هو صاحب الحق في تعيين أصحاب الألقاب، وهكذا وفي الوقت نفسه أدى توسع إقليمي صغير إلى أن تصبح المنطقة المركزية لبلاد كوبا تحت سيطرة الدولة الجديدة.

ثم تبدأ المرحلة الثانية من تاريخ كوبا بحادث نجاح عمليات الغزو التي قامت بها قبيلة كوبية أخرى حين دمرت عاصمة البوشونج وقتلت ملكها. وأثناء حركة الاضطراب والبلبلة التي أعقبت هذا الغزو استطاع أحد المغامرين واسمه شيام أمبول أنجونج Shyoam Ambul Angoog أن يستولي على الملك وأن يعيد تنظيم الدولة من جديد. ولقد عاش شيام هذا فترة من الزمن في منطقة كوانجو فأحضر معه إلى الدولة الجديدة مجموعة من العناصر الحضارية والتي كانت تتميز بها هذه المنطقة فأدخل - مثلاً - المحاصيل الأمريكية - خاصة محصول الذرة العويجة - التي أصبحت الغذاء الأساسي للسكان نظراً لأن هؤلاء السكان قد زادوا زيادة ملحوظة في العقود التالية. ثم توسع إلى أبعد من هذا فنشر الأساليب الفنية المختلفة في بعض ميادين الصناعة مثل صناعة النسيج وقطع الأخشاب وحفرها. وتولى كذلك حركة التوسع في عمليات الإنتاج بالجملة وفتح الأسواق وترويج التجارة إلى مناطق بعيدة أيضاً وأدت هذه الأعمال في النهاية إلى

تجديد كامل للهيكـل الحضاري. وفي ذلك الوقت أيضاً طور أهل كوبا حضارتهم الفكرية والفنية المميزة.

وكانت أعمال شيام في المجال السياسي تعتمد أساساً على إدخال نظام طقوس التكريس أو التدشين بالنسبة للصبية، وهو النظام الذي كان معمولاً به في بلاد مملكة لوندا.

وكانت فكرة شيام تنحصر في تركيز نظام التكريس هذا في عاصمة ملكه حتى يحتفظ بوجود هؤلاء الصبية لمدة عام كامل يقضونه في الخدمة العسكرية. كما اخترع أيضاً نظام تركيز عدد كبير من السكان في العاصمة حتى يستطيع أن يشكل من الرجال الذين يمتازون بالبنية القوية جيشاً أقوى بكثير من جيوش الزعامات القبلية التي تحيط بالبوشونج والتي يمكن أن تهدد هذا الملك. ولذلك فلم يكن مدهشاً ولا عجباً أن ينجح هذا الملك كما نجح خلفاؤه كذلك من بعده في ضم كل القبائل المحيطة بهم إلى مملكتهم. وقد اخترع البوشونج عندئذ طريقة الحكم غير المباشر وأنشئوا دولة يحكمها ملك منهم، ولكنها تتميز بكل خصائص اتحاد الزعامات القبلية A Federation of chiefdoms وكان آخر تغيير كبير يحدث عند البوشونج خلال هذه المرحلة هو تحول ملكهم إلى ملك مقدس Divine king أي إله على الأرض A god on earth وظهرت مع هذا التحول الجديد في الأفكار الخاصة بالنظام الملكي طقوس جديدة تتناسب معها وكان هذا النظام كله - كما يبدو - ذا أصل لوندي (نسبة إلى لوندا) وكنجولي إلا أنه كان يتسم بقدر كبير من الإضافات المحلية.

وفي أواخر القرن السابع عشر توقفت حركة الإصلاح والتجديد هذه بالنسبة للحضارة، وكانت الأسباب الرئيسية لهذا كما يبدو هي:-

أولاً: توقف أعمال التوسع بسبب رغبة الشعب في تهئية جو من السلام يساعدهم على تنمية تجارتهم وازدهارها.

ثانياً: حدوث فتن داخلية بين أعضاء الأسرة المالكة.

ثالثاً: غزو جماعات اللوبا وإغاراتهم على كاساي، وهي الجماعات التي طردها إمبراطوريو اللوبا من كاتنجا.

واستمرت التجارة خلال هذه الفترة على النحو الذي كانت عليه من قبل وأخذ البوشونج ينتقلون بتجارتهم هنا وهناك بالبر والبحر، فوصلوا إلى لوندا، وتشوكوي Chokwe وأوفمبونديو وشعوب اللوبا في كاتنجا وشعوب مملكة سونجي بل وشعوب منطقة الغابة أيضاً، كما كانوا على اتصال بمملكة كونجو في ستانلي بول، ولم يأت عام 1850 حتى كانوا معروفين أيضاً داخل مملكة لوندا.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الهيكل السياسي العام لهذه الدولة وكذلك نظامها القانوني قد تكاملا وتدعما. وكانت هذه المملكة على وجه العموم مملكة مسالمة هادئة، وهذا ما أغرى الكثيرين من الأجانب من ذوي الجنسيات الأفريقية المختلفة باستيطانها والاستقرار فيها، ومع هؤلاء الأجانب وفدت كل أنواع العناصر الحضارية الجديدة الأخرى التي كانت أقل أهمية من حضارة هذه المملكة ثم امتزجت تدريجياً وفي ببطء لتشكل جميعاً حضارة واحدة.

واستمرت هذه المملكة قائمة على هذا المستوى إلى أن بدأ مجيء الأوربيين في عام 1880 وفي السنوات التي تلت هذا العام - وعندئذ بدأ الانهيار، فإن البوشونج قد أعلنوا الحرب في عام 1904 على هذه الدولة دولة الكونغو المستقلة وفقدوها لأنها أصبحت خاضعة في حوالي 1910 لسلطة منتظمة.

ومن خلال كتابات توردي Torday عالم الأجناس الذي زار شعب مملكة كوبا الأفريقية عام 1907 نستقي أهم وأحسن معلوماتنا عن هذا الشعب فقد أثنى هذا الأستاذ على حضارتهم باعتبارها حضارة سامية متفوقة، ولهذا الثناء فعلاً ما يبرره فإن شعب كوبا كان يتمتع بهيكل سياسي ممتاز في القارة، وكانت فتونة ذات مستوى رفيع جداً حتى أن بعض نقوشهم ورمائيلهم كانت تضارع مثيلاتها في مملكة بنين. كذلك حقق هذا الشعب تطوراً اقتصادياً ملحوظاً.

وليس من شك في أن هذا التفوق الحضاري يفسر لنا حقيقة تاريخية أخيرة هي أن هذا الشعب قد ظل يحافظ في إصرار على قيمه القومية وطرق حياته الخاصة به حتى في القرن العشرين الذي لم يقبلوا منه سوى مظاهره الاقتصادية والفنية فقط.

جنوب الليمبوبو

و. م. ماكميلان

W.M. Macmillan

يقصد بمنطقة جنوب الليمبوبو أيضاً منطقة جنوبي النطاق المداري أو المنطقة القريبة جداً مما يسمى الآن باسم اتحاد جنوبي أفريقيا، وتظهر منطقة الليمبوبو على الخريطة أشبه ما تكون بشكل حوض يمتد من نصف الطريق تقريباً عبر القارة حتى منافذها في المحيط الهندي بالقرب من خليج "ديلاجوا" ويشكل في الوقت نفسه حداً يفصل اتحاد جنوبي أفريقيا عن روديسيا في الشمال الأقصى، كما يفصله أيضاً عن محمية بتشوانا لاند التي يسيطر عليها البريطانيون في الغرب، ومعروف أن كل المنطقة التي تقع في نفس هذه الأبعاد في الغرب من الليمبوبو هي منطقة قاحلة قليلة السكان، أما حوض الليمبوبو فإنه يضم أغنى أجزاء الاتحاد وأكثرها ازدحاماً بالسكان.

ولم يكن لهذه المنطقة الجنوبية تاريخ مسجل على الإطلاق قبل أن يكتشفها البحارة البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وحتى التاريخ الذي عرفناه عنها بعد ذلك كان قليلاً وظل كذلك إلى أن جاءت فترة ما بعد منتصف القرن السابع عشر حين استوطن عدد قليل من الأوربيين الأوائل المنطقة المتطرفة منها عند الركن الجنوبي الغربي لها وفي

ذلك الوقت لم يكن هناك شيء معروف عن الشعوب الزنجية من حيث أصولها وعدد أفرادها، بل حتى من أماكنها ومواطنها.

وقد اصطدم المستكشفون الجدد من الأوروبيين القادمين برجال القبائل الذين يتحدثون لغة البانتو اصطدم كل منهما بالآخر لأول مرة فقط في حوالي عام 1702 وذلك عند المنطقة القريبة من غرب خليج الجوا (ميناء اليزابث)، ومن المحتمل أن الأفريقيين لم يكونوا يحتلون احتلالاً كاملاً هذه المنطقة الجنوبية الواقعة عند هذه النقطة، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا موجودين في المنطقة الواقعة فيما وراء ذلك إلى الجنوب أو الغرب إلا أنه لا يوجد ثمة سبب من الأسباب يدعو إلى الشك في أن هؤلاء الأفريقيين أو أقاربهم كانوا يسكنون - ولم يكن أحد ينافسهم في ذلك - كل المنطقة الشمالية الشرقية ليس في الناتال وترانسكي فحسب، حيث لا يزالون يستوطنونها على نحو كثيف حتى الآن، بل كذلك في منطقة الليمبوبو التي تعتبر أكثر جفافاً وبرودة وهي التي كانت جمهوريات البوير السابقة وأعني بها الولاية الحرة Free State "الأورانج" و"الترنسفال".

ويدعي بعض المؤرخين من جنوبي أفريقيا أن جزءاً من منطقة الاتحاد لم تكن مناطق أفريقية على الإطلاق، فإن توزيع السكان هناك كان خاضعاً لتقديرهم الدقيق للنموذج الجغرافي، وكان سقوط الأمطار يمثل دائماً عاملاً حاسماً فقد كانت تتحكم فيها الرياح السائدة أعني الرياح التجارية (الشمالية الشرقية) والرياح المقابلة أو الرياح الشمالية الغربية وكانت الرياح الجنوبية الشرقية تهب مباشرة جنوبي خط الاستواء وعلى طول ساحل أفريقيا الشرقي كله، وكانت تهب على الشاطئ وكذلك على

المنحدر الجبلي بعد أن تمتص رطوبتها من هواء البحر الدافئ الذي يصطدم بها، وعلى هذا يمكن أن نقول أن هذه المنطقة تعتبر منطقة رطبة وجود فيها الإنتاج إلى حد ما، ومن المحتمل أنها كانت دائماً المركز الرئيسي لشعوب البانتو من أبناء جنوبي أفريقيا وفي أواخر عشرينات القرن التاسع عشر امتدت الثورة العارمة التي قامت في بلاد الزولو من الناتال إلى أبعد من موطنها الأصلي، وحدث لأول مرة أن دخلت إلى سجلات التاريخ قصة الحروب التي ارتبطت بأسماء زولو وتشاكا، فقد رأى شهود يعتبرون موضع الثقة التاريخية هذه الحروب وكتبوا لنا وصفاً لتشتت القبائل وتفرقها نتيجة لوقوع هذه الحروب، ومن يومها بدأنا لا نسمع فقط عن الزولو فحسب، بل نسمع أيضاً - وإن كان ذلك قليلاً - لأول مرة عن الجماعات القبلية الهامة في المنطقة الوسطى أو منطقة الليمبوبو .. بدأنا نسمع عن الباسوتو Basuto مثلاً، وأقاربهم من أبناء البتشوانا Bechuana وأصبحت جماعات أخرى مثل البافندا Bavenda والهيريرو Herero معروفة في التاريخ أثناء الفترة الأخيرة.

ويقال أن جماعة البتشوانا بصفة خاصة - وهي واحدة من هذه المجموعات - قد هاجرت إلى المنطقة الجذباء التي نعيش فيها الآن، ولقد كنت أحس دائماً حين تعرفت على هذه المنطقة جيداً أن مهارة هؤلاء البتشوانا في بناء الأكواخ تشير إلى أنهم كانوا يعيشون في يوم من الأيام في بيئات أكثر بساطة وسهولة، وبناء على هذا الدليل يذهب بعض أصحاب النظريات في جنوبي أفريقيا إلى حد الافتراضي بأن تاريخ البانتو كان تاريخاً طويلاً من الهجرات وأن القبائل التي كانت تعيش في أقصى الجنوب كانت

طليلة هذه الهجرات، وسواء أكانت هذه القبائل مغيرة أم كانت شيئاً آخر، فإنها كانت تمثل شعوباً بدائية تسلك في حياتها سلوكاً معيناً، فاستأنسوا الحيوانات وزرعوا بعض الحبوب الغذائية مثل الذرة وتميزوا ولا زالوا يتميزون حتى الآن بروح الفاكهة والمرح.

وهكذا نرى أن تاريخ جنوبي أفريقيا قد أخذ شكله بناء على الجانب الغربي لشبه القارة، فقد كانت هناك ظروف مختلفة تماماً أدت إلى وجود شعب مختلفة جداً، كما أدت أيضاً إلى منع الهجرات الحرة من وإلى هذه المنطقة، فمن منطقة موزاميدس Mossamedes في أنجولا إلى المنطقة القريبة جداً من مدينة الرأس تعتبر كل من الرياح الجنوبية الشرقية والرياح الشمالية الغربية هي الرياح البرية التي تهب على كل هذا الطريق ويقلل التيار البحري القطبي الجنوبي كثيراً من الرطوبة حتى يصل بها إلى نقطة الصفر، وحتى هؤلاء الذين يعرفون كل شيء عن الصحراء الكبرى في الشمال يميلون إلى تجاهل الامتداد الأضيق والأطول للصحراء desert التي تقف حائلاً دون الوصول من جهة الجنوب الغربي، إلى المناطق الداخلية وعلى هذا فإن هذه المنطقة - وهي بالطبع قاحلة - لم تكن تساعد على وجود عدد كبير من السكان، ولم يحدث أن زار شعب هذه المنطقة أي زائر أجنبي قبل أن يصل إليها الأوروبيون، ومن ثم كانوا يعيشون في شبه عزلة عن العالم الخارجي، لقد كانوا البوشمان الذين كانوا يعتمدون أساساً في حياتهم على الصيد، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أنهم كانوا على جانب من المهارة في الرسم والنقش، فقد عثر على صخور نقشت عليها بعض رسوم جميلة في مناطق كان يسكنها هؤلاء البوشمان من هذه المناطق

ولم يبق لهم أثر إلا في أقصى المنطقة التي تقع في صحراء كالاهاري وأعني بها منطقة بتشوانا لاند، أما شعب الجنوب الغربي الآخر، وأقصد بهم الهوتنتوت ذوي البشرة الصفراء فقد كانوا أكثر تطوراً في تربية الماشية وحيازتها.

على أن هناك دليلاً عجيباً بعض الشيء يشير إلى أن كلاً من شعب البوشمان والهوتنتوت كانوا منتشرين انتشاراً واسعاً من قبل، فإن هناك أصواتاً معينة وغير عادية وهي الأصوات المعروفة بالطريقة Clicks.

تعتبر بين اللغات البانتوية لغة غربية على هذه القبائل التي تعيش في المناطق الجنوبية الشرقية وهي قبائل: الزولو في الناتال، و قبيلة الأماكسوسا The Amaxasa Tribe في الرأس، كذلك فإن البوشمان والهوتنتوت يتحدثون اليوم لغات الطريقة Clicking languages وليس من شك في أن البانتو الجنوبية قد أخذوا هذه الطرقعات من البوشمان والهوتنتوت الذين أخضعهم هؤلاء البانتو وامتصوهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا عليهم قضاء تاماً.

وفي عام 1510 زار البرتغاليون خليج التيبيل Table hay ولكن حدث في عام 1652 فقط أن قررت شركة الهند الشرقية الهولندية ضرورة إيجاد ميناء لسفنها فكان خليج التيبيل هو هذا المكان المختر وكانت المنطقة الجنوبية الغربية كما سبق أن ذكرت منطقة جدباء بصفة عامة إلا أنه كان هناك استثناء هام، فإن الساحل القريب من مدينة الرأس كان يسمح له موقعه بأن تهب عليه من البحر مباشرة الرياح الشمالية الغربية

وبذلك كان هذا الركن الصغير يتميز بوجود أقطار شتوية منتظمة جعلته يتمتع في الواقع بمناخ البحر الأبيض المتوسط، وكانت إقامة مستعمرة في هذه المنطقة في أول الأمر آخر شيء تفكر فيه شركة الهند الشرقية الهولندية، فهي لم تكن تريد شيئاً أكثر من تزويد بحارة سفنها باللحوم والخضروات الطازجة، غير أن الهوتنتوت لم يكن لديهم استعداد لتقديم هذه المطالب التي تريدها الشركة، ومن ثم جاء المستوطنون للقيام بزراعة الخضروات وتربية الماشية ثم حدث في حوالي عام 1688 أن جاءت قوة جديدة أخرى قوامها مائتا لاجئ من الهيجونوت الفرنسيين المزودين بأسلحة أحسن وأقوى وحين رفض الهوتنتوت العمل مع البيض الوافدين بدأ هؤلاء البيض يجلبون الرقيق من الأفريقيين الذين يوجدون في المناطق الشمالية، وكذلك من الملايوين الذين يحتمل أنهم كانوا من بين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة.

وحين نمت هذه المستعمرة في جنوبي أفريقيا - على الرغم من معارضة الشركة الهولندية - أصبح مصير الهوتنتوت مصيراً مريباً، فلم تكن هناك حروب قومية عادية بينهم - وذكروا اسم الجبال التي تقع خلف مدينة الرأس بأن المنطقة المجاورة كانت تعرف في أول الأمر باسم هولندا الهوتنتوت، ولكن هذا الشعب لم يكن يتمتع بحقوقه القانونية أو وضعه الشرعي، وقد أدت هذه الأوضاع الجديدة إلى وجود مرض الجدري وغيره من الأمراض المعدية الجديدة الأخرى التي لم يكن لهذا الشعب جلد قبل العصر الطبي على مقاومتها أو تحملها، فمات الكثيرون منهم، غير أنه حدثت في الفترة الأولى عمليات تزاوج ومصاهرة كانت في حدود ضيقة ثم

اتسعت حتى ظهر شعب مختلط، وبقي عدد قليل من هذا الشعب المختلط يحتفظ بهاشيته وقطعانه وكان الضغط المتزايدة الذي يفرض على الهوتنتوت أن يقوموا بالعمل من ناحية، وأن يحفظ لهم الحماية الشرعية من الناحية الأخرى، كان هذا الضغط يتبع القصة الأخيرة، أي قصة حدود المستعمرة فبعد أن صدر قانون عام 1833 التي ألغت الحكومة البريطانية بمقتضاه تجارة الرقيق في كل المناطق التابعة لها أصبح كل من الرقيق والهوتنتوت أحراراً، ولكن خطاب عام 1838 وهو الخطاب الذي قرأته أنا بنفسه ربما كان صحيحاً حين ذكر أنه لم يكن هناك أي شخص في تلك الأيام كان من الهوتنتوت الخالص Pure، فإن الرقيق تحرروا وكذلك الهوتنتوت الأحرار لم يصبح من الممكن تمييزهم أو التفرقة بينهم، والواقع أن الملايوين الذين كانوا يشكلون أكثر رجال التجارة مهارة ونجاحاً هناك هم الذين استطاعوا أن يحافظوا على بعض مميزاتهم الذاتية، فمساجدهم والطرابيش الحمراء التي كان يرتديها رجالهم وكذلك الساري الذي كان رداء نسائهم كانت كلها تشكل المعالم الخاصة لمدينة الرأس، واقتبس أفراد الشعب الأفريقي من الملايوين بعض أغانيهم ورقصاتهم وكلمات كثيرة من لغتهم كما تعلموا منهم أيضاً طريقة صنع أطباقهم الشرقية الشهية.

ويعتبر الهوتنتوت أصليون الذين اختلطت دماؤهم بدماء الأوروبيين والملايوين هو الأرومة التي يرجع إليها أصل الشعب الذي يتحدث اللغة الأفريكانية.

ويقول بعض المؤرخين أن الكفاح الذي قام به هذا الشعب للحصول على حريته هو الكفاح الرئيسي في تاريخ جنوبي أفريقيا الأوسع نطاقاً،

ونظراً لأن الشركة الهولندية لم تكن شديدة الرغبة في أن تمتلك هذه المستعمرة الجديدة، فإنها قد فرضت قوانين صارمة حالت بين المستوطنين في أول الأمر وبين تغلغلهم إلى الداخل، إلا أن سقوط الأمطار قد تحكّم إلى حد كبير في مجريات الأمور التي حدثت فيما بعد لأن الطريق إلى الشمال كان طريقاً مستحيل الارتداد، فالأرض التي يمكن رؤيتها في هذا الاتجاه من فوق قمة جبل التيبيل Table mountain إن لم يكن من مدينة الرأس نفسها كانت تغطيها أمطار تصل في كثافتها إلى عشر بوصات أو أقل، وكان الطريق الوحيد إلى الأمام هو طريق الشرق الذي يقع على الحزام الساحلي، كذلك دانت الرحلة بطيئة لأن سقوط المطر هناك كان غير محدد حتى وصل البوير الأوائل إلى منطقة الأمطار الصيفية في الجنوب الشرقي، وكانت القبائل الأفريقية موجودة فيها قبل وصولهم إليها، وفي هذا الوقت اصطدمت العناصر بعضها مع بعض في أول الأمر حوالي عام 1770 وأصبح البوير يشكلون شعباً متميزاً إلى حد كبير، إلا أن هذا الشعب قد ظل يعيش لسوء الحظ في عزلة تامة، فلم يكونوا يعرفون شيئاً بالمرّة عن نهضة القرن الثامن عشر أو ما حدث بعده أيضاً، ولم يتأثروا بنفوذ مبادئ حرية الرأي التي سادت أوروبا خلال القرن التاسع عشر.

والواقع أن البوشمان هم الذين علموا البوير كيف ينظمون خطوط دفاعهم، فحين قامت الحروب بين الفريقين تركت الشركة للبربر الحق في أن يختاروا الطريقة التي يريدونها لحماية أنفسهم ومصالحهم، وكان وجود نظام التطوع في التجنيد بين البوير هو الوسيلة التي مكنتهم من أن يسيطروا على أراضي الأفريقيين بعد أن دافع هؤلاء الأفريقيون في بسالة وشجاعة

عن مواطنهم.

ويعتبر عام 1778 هو أول عام تظهر فيه عملية التفرقة العنصرية بشكلها العملي في هذه المنطقة من أفريقيا، فإن نهر الأسماك Fish river كان يفصل بين كلا الفريقين ولكنه كان حداً غامضاً غير واضح الملامح فلم تتوقف سلسلة الحروب التي كان يشنها الأفريقيون بين الحين والآخر، وعلى هذا النهر قامت مستعمرة البوير وظلت قائمة حتى عام 1948، وأخذ المسرح يشهد بعد ذلك دراما طويلة جداً ظلت فصولها تتوالى تباعاً بعد أن اتسع نطاق حدود هذه المستعمرة الأولى جهة الشمال والشرق.

@booka

الزعيم الأفريقي

سينهول

sayatahual

الشخصية الأفريقية:

هل كان لدى الرجل الأفريقي أي إدراك لمعنى الحرية قبل ظهور عصر الاحتلال الأوربي

في أفريقيا؟

وهل كان هذا الرجل الأفريقي مستعداً للدفاع عنها عندما تتعرض لأي نوع من أنواع

التهديد؟

وهل كانت عند الشعوب الأفريقية تنظيمات ديمقراطية قبل مجيء البيض إلى بلادهم؟

وقبل الإجابة على كل هذه الأسئلة نحب أن نذكر أننا سنؤجل الإجابة على السؤال

الأخير لأننا سنناقشه مناقشة مستفيضة في الفصل الخاص بالنظم الديمقراطية في هذا

الكتاب.

يدعي الكثيرون من الغربيين أن الرجل الأبيض هو الذي خلق روح

الحرية في أفريقيا، كما أنه هو الذي أدخل النظم الديمقراطية إليها أيضاً،

ولذلك فإن الثورة التي يقوم بها الرجل الأفريقي اليوم للمطالبة بتحقيق

الحرية والديمقراطية ليست إلا ثورة تطالب بأشياء خلقها الرجل الأبيض في

أفريقيا وتعتبر من ممتلكاته هو.

هذا ما يدعيه كثير من الأوروبيين والأمريكيين، ولن نحاول أن نذهب مذهبهم في تشويه الحقائق وتزييف الواقع التاريخي، ولكننا نريد أن نعرف عن طريق الدراسة الموضوعية الجادة ما إذا كان للحرية والديمقراطية وجود فعلي في أفريقيا قبل مجيء الرجل الأبيض إليها أم لا.

والسؤال الرئيسي الذي يواجهنا الآن هو: هل الحرية والديمقراطية أمران غريبان على أفريقيا، أم هما أصيلان فيها؟ وهل كان كفاح الأفريقيين الذي تشاهده اليوم من أجل الاستقلال موجوداً قبل عصر الاحتلال الأوربي أو بعده؟

ولكي نجيب على هذه الأسئلة ينبغي أن نتناول أولاً وعلى نطاق أوسع بعض الجوانب الهامة من حياة الرجل الأفريقي، ونعنى بها اللغة ونظام الرق وتاريخ أفريقيا، ثم نختم مناقشتنا بالحديث عن النظامين التشريعي والقضائي، وهما الموضوعان اللذان سنعالجهما في الفصل التالي.

ودراساتنا للغة الأفريقية تتطلب معرفة ببعض المعلومات التي تلقى مزيداً من الضوء على بحثنا الذي نحن بصددده الآن، وسيساعدنا هذا الجدول التالي في الوصول إلى ما نود توضيحه.

ونحن لكي نؤكد وجود الحرية في أفريقيا أو عدم وجودها يجدر بنا أن نتبع كلمة "حرية" في اللغات الآتية:

Freedom	فهي في اللغة الإنجليزية
Liberte	وفي اللغة الفرنسية
Liberdade	وفي اللغة البرتغالية
Libertas	وفي اللغة اللاتينية
Libertad	وفي اللغة الأسبانية
Inkululeko	وفي لغة الزولا (جنوبي أفريقيا)
Inkulululeko	وفي لغة الأوكسهوسا (جنوبي أفريقيا)
Inkululeko	وفي لغة الأندييلي (روديسيا الجنوبية)
Rusununkugo	وفي لغة الشونا (روديسيا الجنوبية)
Tokoloho	وفي لغة السوتو (باستيو لاند)
Epe	وفي لغة الأيبو (نيجيريا)
Henoyeli	وفي لغة الألبا (غانا)
Vovome	وفي لغة الأيوي (غانا)
Fowohodie	وفي لغة التيوي (غانا)

كذلك سيساعدنا الجدول التالي أيضاً في تحديد مهمتنا، وهو خاص بكلمة "رقيق"

و"رق" في اللغات المختلفة.

slavery	ورق slave	فكلمة رقيق في اللغة الإنجليزية
esclavage	ورق esclave	كلمة رقيق في اللغة الفرنسية
escrovotiro	ورق escrovo	كلمة رقيق في اللغة البرتغالية

servitus	ورق	nancipim	كلمة رقيق في اللغة اللاتينية
esclavitud	ورق	esclavo	كلمة رقيق في اللغة الأسبانية
ulnqgili	ورق	isiqgili	كلمة رقيق في اللغة الزولو
uluqgili	ورق	isiqgini	كلمة رقيق في اللغة الأوكسهوسا
uluiqgili	ورق	isiqgili	كلمة رقيق في اللغة الأندبييلي
uhaphow	ورق	nhaphwo	كلمة رقيق في لغة الشونا
bokhobo	ورق	lekhoba	كلمة رقيق في لغة السوتو
barnet	ورق	baria	كلمة رقيق في اللغة الأمهرية
igbo-orn	ورق	oru	كلمة رقيق في لغة الأيبو
igbo-orn	ورق	ngon	كلمة رقيق في لغة الجا
luvinenye	ورق	omefelc	كلمة رقيق في لغة الأيوي
luvinenye	ورق	donko	كلمة رقيق في لغة التوي

ليس علم فقه اللغة أو الدراسات اللغوية بصفة عامة هو موضوعنا الرئيسي في هذا الكتاب، وإذا كنا قد تعرضنا إلى بعض الدراسات اللغوية المقارنة هنا فلكي نلقي بها بعض الضوء على بحثنا حول وجود كلمة حرية أو عدم وجودها في اللغة الأفريقية قبل مجيء الأوربيين إلى أفريقيا.

فمن هذين الجدولين يتضح لنا أنه لا يوجد أي تشابه لغوي بين الكلمتين الأفريقية والأوربية، كما أن كلمة "حرية" في كل اللغات الأفريقية التي ذكرناها لا تمت بأية صلة لغوية إلى مجموعة الكلمات التي تعني

"الحرية" والتي ذكرناها أيضاً.

وهكذا نصل إلى نتيجة منطقية لا يستطيع أحد أن ينكرها وهي أن مفهوم الحرية ليس شيئاً أجنبياً على أفريقيا، بل هو أصيل فيها أصالة أرضها وشعبها.

وطبقاً لمعلوماتنا المتواضعة عن اللغات الأفريقية بصفة عامة، ولغة البانتو بصفة خاصة نستطيع أن نوكد أنه لا توجد لغة أفريقية خالية من كلمة أو جملة تعبر عن الحرية والرق. ولكن وجود كلمة "الحرية" في اللغات الأفريقية التي ذكرناها لا يعتبر دليلاً قاطعاً على أن الحرية كانت حقيقة واقعة عند الشعوب الأفريقية. فالوجود اللغوي لكلمتي "حرية" و"رق" يمكن أن يتساوى في الوجود اللغوي مع كلمتي "عفريت" و"شيطان". وهنا نتساءل: هل جاءت هاتان الكلمتان "حرية ورق" نتيجة الإسراف في عملية الخيال، أم أنهما وليدتا موقف حقيقي من مواقف الحياة؟ أو بعبارة أخرى هل لهاتين الكلمتين مضمون تاريخي أم أنهما مجرد كلمتين وهميتين لعب فيهما الخيال الإنساني دوراً كبيراً؟

تؤكد الحقائق التاريخية الشائعة أن نظام الرق كان موجوداً في أفريقيا قبل وصول الشعب الأبيض إليها بزمان طويل، ولا شك في أن وجود طبقتين من الناس - سادة وعبيد - في أي مجتمع يعني بالضرورة وجود طائفة تتمتع بحرية، وأخرى محرومة منها. وإذا كان الرق معروفاً في أفريقيا قبل مجيء الرجل الأبيض إليها فإن ذلك يستتبع أيضاً معرفة الأفريقيين بالحرية، فالرق هو الحرمان من الحرية الإنسانية، وحيث لا توجد حرية لا

يمكن أن يكون هناك رق. وهكذا نرى أن الحرية والرق إنما يوجدان داخل الواقع التاريخي، لا داخل مملكة الخيال والتصور. ولهذه القضية أهميتها من حيث أنها تلقي مزيداً من الضوء على الحقيقة القائلة بأن الكفاح الذي يقوم به الأفريقيون اليوم من أجل الاستقلال إنما يرجع في وجوده إلى أصل تاريخي عرفته الشعوب الأفريقية قبل أن يصل البيض إلى بلادهم. وليس الوجود اللغوي إلا دليلاً على هذه الحقيقة.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى تاريخ أفريقيا لنعرف ما إذا كانت الحقائق التاريخية ستؤيد الحقائق اللغوية أم أنها ستتناقض معها.

ولن نستطيع أن نتحدث هنا عن كل الدول الأفريقية، لأن المجال لن يتسع لمثل هذا، بل سنكتفي فقط ببعض النماذج التي تبين لنا كيف أن الحروب الضروس كانت تقوم بين القبائل من أجل فرض سيطرة إحداها على الأخرى.

ولنبداً مثلاً بالقبائل التي تعيش في غرب أفريقيا. والمعروف أن تاريخ الحروب القبلية في هذه المناطق تاريخ طويل ومعقد للغاية ولن نستطيع أن نتناول من تفاصيله إلا بعض الإشارات التي نحتاج إليها ويمكن أن نعتمد - إلى حد ما - في هذا الخصوص على ما كتبه ت. د. باتل عن الحروب القبلية في كتابه "أفريقيا الاستوائية في التاريخ العالمي، المجلد الثالث" قال:

كانت توجد في ساحل الذهب مجموعات كثيرة من القبائل التي يتعادي بعضها مع الآخر، وكثيراً ما كان يحدث أن تنتصر القبيلة الأقوى على القبيلة الأضعف، فتحرمها من ممارسة حرياتهما، وبذلك تقضي على

استقلالها، ولكن القبيلة المغلوبة تظل تنتهز كل فرصة لكي تسترد ما فقدته من حرية واستقلال، وتلجأ إلى إعلان الثورة ضد الحكم الذي فرضته عليها القبيلة الأخرى، وكثيراً ما كانت القبيلة المغلوبة تطلب مساعدة قبيلة أخرى قوية لكي تستعين بها في القضاء على سلطة القبيلة المنتصرة، وأوضح مثل لذلك هو ما كان يحدث من صراع عنيف بين قبيلة "الأشانتي" وقبيلة "الفانتي" ولما كان استقلال قبيلة الفانتي مهدداً دائماً من قبيلة الأشانتي فإن الفانتيين لجئوا إلى الأوربيين يطلبون منهم حمايتهم من الأشانتيين، ولكن حدث لسوء الحظ أن تحولت هذه الحماية الأوربية إلى سيطرة أجنبية، وظهرت هذه الصورة من الصراع القبلي أيضاً بين قبيلة اليوروبا وغيرها من القبائل النيجيرية الأخرى.

وتاريخ قبيلة البانتو في جنوبي المنطقة الاستوائية صورة أخرى للصراع الذي كان يقوم بين قبيلة منتصرة وأخرى مغلوبة.

وفي بداية القرن التاسع عشر ظهر في بلاد الزولو زعيم أفريقي عسكري يدعى "شاكا" وصلت به عبقريته العسكرية إلى الحد الذي جعل الناس يطلقون عليه لقب "نابليون جنوب أفريقيا الأسود" لقد انتصر على عدة قبائل صغيرة وجعل منها جميعاً أمة واحدة هي أمة الزولو ووجدت بعض القبائل الأخرى التي كان شاكا يهدد استقلالها، وجدت نفسها مضطرة إلى مهاجمة هذا الزعيم، ولكن هجماتها كلها على كثرتها قد باءت بالفشل، فاضطرت إلى الهجرة إلى مناطق مجهولة حيث كانت تأمل أن تعيش في سلام وحرية تامتين.

وهكذا بدأت هجرات البانتو في أوائل القرن العشرين، فرحلت الأنجوني إلى المنطقة التي أصبحت تعرف اليوم باسم "نياسا لاند" حيث استقرت هناك. كما رحلت قبيلة "الشانجين" إلى ما يعرف الآن باسم "أفريقيا الشرقية البرتغالية" والمعروف أن قبيلة الشانجين هذه هي إحدى قبائل الزولو. وكذلك عبرت قبيلة الأيندييلي جبال الدراكينز بيرج حيث استقرت بصفة مؤقتة فيما يطلق عليه اليوم اسم "الترنسفال" ولكن البوير ظلوا يضايقونهم مما اضطرهم إلى الهجرة مرة ثانية مخترقين نهر ليمبوبو كيبلينج حيث استقر بهم المقام أخيراً فيما يعرف الآن باسم منطقة روديسيا الجنوبية. كذلك هاجرت قبيلة المانتاني ناحية الغرب حيث هاجمت قبيلة البيتشوانا، إلا أن البيتشوانيين قد استطاعوا أن يردوا هجمات هؤلاء المانتانيين واضطروهم إلى العودة إلى الجنوب وهناك أقاموا في المنطقة المجاورة لمصبات فيكتوريا المشهورة عند نهر زمبيزي، وكانت هذه القبيلة هي فعلاً قبيلة "ماكولولو" التي اكتشفها أخيراً دكتور دافيد ليفينجستون بهذا الاسم.

لا نريد أن نثقل على القارئ بذكر الكثير من التفاصيل عن تاريخ قبيلة البانتو، ولكننا نريد أن نضع أمام عينيه بعض النقاط الهامة التي تساعد على فهم كثير من التيارات المعاصرة التي خلقت الإحساس بالقومية الأفريقية بين شعوب قارة أفريقيا.

من المعروف تاريخياً أن الحرب بين قبيلتين تحاول إحداها أن تفرض سيطرتها على الأخرى، أي تحرمها من حريتها واستقلالها، أمر كان يحدث في أفريقيا قبل أن يفرض الرجل الأوروبي سيطرته هناك بزمان طويل. وكانت

القبيلة المغلوبة تبذل كل ما في استطاعتها لكي تسترد ما فقدته من حرية واستقلال، وكانت تلجأ لتحقيق ذلك إلى طريق الثورة على الغالبين، أو توحيد صفوفها والتعاون مع غيرها ضدهم، فإذا لم تستطع أن تفعل شيئاً من هذا اضطرت إلى الهروب كي تعيش في منطقة نائية تشعر فيها بالحياة الحرة المستقلة. ولكنها حتى في هذه المناطق البعيدة كانت تحس دائماً بالحنين والشوق إلى وطنها الأول وإلى الاستمتاع بالحرية الحقيقية، وهذا يوضح لنا في جلاء أن كلمة (الحرية) في أفريقيا لم تكن معروفة فقط من الناحية اللغوية، بل كانت معروفة أيضاً من الناحية التاريخية. ولعل من الممكن أن نقارن موجة الهجرة التي قامت بها قبائل البانتو من بلاد الزولو إلى الجهات الشمالية والجهات الغربية بحركة الهجرة العامة التي قامت بها كذلك شعوب أوربا إلى أمريكا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وإذا كانت الشعوب الأوروبية قد هاجرت إلى أمريكا فراراً من الاستبداد الذي كان يسود بلاد أوربا، فإن قبائل البانتو قد هاجرت هي الأخرى من بلاد الزولو (موطنها الأصلي) فراراً من استبداد "شاكّا". وكما أن الشعوب الأوروبية قد هاجرت إلى أمريكا لتقيم لنفسها مستوطناً جديداً في العالم الجديد حتى تستطيع أن تستمتع بالحرية، فإن شعب البانتو كذلك قد هاجر من بلاده لكي يقيم لنفسه مستوطناً جديداً في أماكن أخرى يستطيع فيها ممارسة حريته في جو من الأمان. ولسنا هنا بصدد المقارنة بين كفاح الأوروبيين من أجل استقلالهم وكفاح الشعوب الأفريقية من أجل استقلالهم أيضاً، بل إننا نريد أن نؤكد أن الأفريقيين قد عرفوا معنى الكفاح من أجل الاستقلال والحرية قبل أن يعرف الأوروبيون طريقهم إلى بلادهم.

ومن الحقائق الثابتة تاريخياً أن كثيراً من القبائل الأفريقية التي كانت تخشى سطوة القبائل الأفريقية القوية الأخرى التي تجاوزها كانت تطلب الحماية من الأوربيين، وكان وقوف الأوربيين بجانب القبائل الضعيفة سبباً ساعد على احتفاظ هذه القبائل بحريتها واستقلالها، إلا أن الأوربيين في الوقت الذي ناصروا فيه هذه القبائل خلقوا قبائل أعطوها حق السيادة على غيرها، ولكن هذه القبائل بالرغم مما كان لها من حق السيادة على غيرها كانت خاضعة لسيطرة الأوربيين المباشرة، وهكذا أصبحت كل من القبائل الغالبة والمغلوبة خاضعة للسلطة الأوربية. وإذا كانت هذه السلطة الأجنبية قد أنقذت القبائل المغلوبة من تبعيتها لغيرها من القبائل القوية الأخرى إلا أنها أصبحت بعد ذلك بمثابة الشوكة الدائمة التي تؤذي جسد القبائل التي كانت في يوم من الأيام قوية وصاحبة سيادة.

ولقد سئل أحد الأفريقيين مرة أثناء الحرب العالمية الثانية عما إذا كان يرغب في أن يكون تحت الحكم الألماني بدلاً من الحكم البريطاني فأجاب بقوله:

"ليس هناك فرق بين أن أكون تحت الحكم الألماني أو الحكم البريطاني، فكل منهما تتمثل فيه سيطرة السلطة الأجنبية".

ومن الأمور التي تستوجب النظر والملاحظ أن كثيراً من الأفريقيين أثناء الحرب العالمية الثانية كانوا يتمنون فيما بينهم وبين أنفسهم أن تنتصر ألمانيا حتى يعاني الأوربيون الموجودون في أفريقيا بأنفسهم ما يعانيه الأفريقيون من إحساس بمرارة العيش في ظل السيطرة الأجنبية، وكم كانت

القبائل الأفريقية المستعبدة تود أن ترى السادة البريطانيين قد أصبحوا خاضعين لسيطرة الألمان حتى تقدر موقف الأفريقيين من كراهيتهم للسيطرة الأجنبية ..

إن الإدارة الأوروبية الجديدة التي قامت على أساس القوة العسكرية لم تفرق بين القبائل التي كانت في يوم من الأيام حاكمة والقبائل التي كانت محكومة، لقد استاءت القبائل الأفريقية التي كانت لها السيادة قبل مجيء البيض، لأنها قد أصبحت متساوية مع غيرها من القبائل الضعيفة.

واستاءت كذلك القبائل الضعيفة التي ساعدت الأوروبيين في انتصاراتها لأنها كانت تنتظر من الأوروبيين معاملة خاصة، وهكذا كان هذا الموقف سبباً في وجود اتحاد بين القبائل الأفريقية المتعادية ضد العدو المشترك الواحد.

على أن هناك مسألة نحب أن نناقشها قبل أن نتبع الجهود التي بذلها الأفريقيون لاستعادة استقلالهم المفقود هذه المسألة هي تقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية واعتبارها أسلاب رجل توفي ولم يترك وريثاً من بعده. وقد أدت عملية التقسيم هذه إلى امتلاك كل دولة أوروبية جزءاً من قارة أفريقيا، فأصبحت تحركات القبائل الأفريقية أمراً ممنوعاً، وقرر أن يصل الأوروبيون إلى أفريقيا كانت أية قبيلة تحس بأنها لا تستطيع الإطاحة بحكم القبيلة الأخرى التي تفرض سلطتها عليها، أو تحس بأنها لا تستطيع أن تحمي نفسها من قبيلة أخرى تهددها. عندما كانت تحس بذلك كانت تستطيع أن تهجر إلى أية منطقة أخرى تجد فيها السلام وتستمتع فيها بالحرية، ولكن

هذا الإجراء قد أصبح مع الأسف أمراً غير ممكن بعد أن احتلت الدول الأوروبية أفريقيا وتقاسمتها فيما بينها. لقد وضعت الحدود السياسية التي تحصر الأفريقيين داخل مناطق معينة، واتبعت السلطات الأجنبية في أفريقيا أسلوباً تعسفياً. فلم تعد تسمح للأفريقيين التنقل من مكان إلى آخر، كما كانوا يفعلون من قبل، وليس هذا فحسب، بل إنها قد وقفت ضد أي شعب أفريقي يحاول أن يؤكد استقلاله. وهكذا لم تعد الهجرة التي كان يرى فيها الرجل الأفريقي حلاً لمشاكله أمراً ممكناً.

أن الكثيرين من الغربيين يدعون أن الأفريقيين راضون كل الرضا بالحكم الأوربي. وأن حركة الكفاح التي يقوم بها الأفريقيون اليوم ضد الحكم الأوربي ليست إلا حركة تدفعها الأقلية الأفريقية المثقفة طمعاً في الوصول إلى مراكز السلطة والنفوذ.

هذا ما يردده بعض الغربيين، وهو ادعاء ليس له ما يبرره من الواقع.

فالتاريخ هو الفيصل الوحيد الذي يقرر لنا حقيقة الموقف .. فلقد ثبت تاريخياً أن الأفريقيين قد قاموا بسلسلة من الحركات الكفاحية لاستعادة استقلالهم المفقود أو القضاء على السيطرة الأوربية، وفي الوثيقة التي أصدرتها غانا بمناسبة عيد استقلالها تستطيع أن تقرأ هذه الحقائق التاريخية:-

1- في عام 1817: ذهبت بعثة بريطانية إلى الأشانتيين.

2- في عام 1821: استولت الحكومة البريطانية على زمام السلطة وأقامت منشآت بريطانية

في ظل حكومة سيراليون.

3- في عام 1824 هزمت قبيلة الأشانتي البريطانية، وقتلت الحاكم العام سير تشارلز مكارثي.

4- في عام 1826 انهزمت قبيلة الأشانتي عند (دودوا).

5- في عام 1873 انهزم جيش الأشانتيين عند (المينا).

6- في عام 1900 حاصرت قبيلة الأشانتي كومازي، ولكنها انهزمت في النهاية.

وتاريخ جنوبي أفريقيا يقدم لنا أيضاً طائفة طيبة من النماذج التي توضح لنا عدم رغبة القبائل الأفريقية هناك في البقاء تحت سيطرة الحكم الأوربي .. فالحروب المعروفة التي كان يطلق عليها يومذاك (حروب الكفار) كانت تقوم من وقت لآخر بين المستوطنين البيض وبين شعوب (الأكسهوسا) لقد كانت شعوب الأكسهوسا تشن حملاتها المتكررة على الغزاة الأجانب حتى تحمي أراضيها وتصون ممتلكاتها، وحدثت مثل هذه الإغارات عام 1896 من جانب القبائل الأفريقية التي كانت تقطن ما يسمى اليوم باسم (روديسيا الجنوبية).

لقد دخلت قبائل الماتاييلي في حروب طاحنة مع البريطانيين على أمل أن تسترد استقلالها من يد الأجانب ولكنها فشلت في تحقيق ما قامت تحارب من أجله، وكذلك قامت قبيلة الماشونا في العام نفسه بحركة مماثلة لم يقيض لها النجاح أيضاً، إذ أن مدافع البريطانيين الحديثة قد أخذت تصب نيرانها الحامية على أفراد الشعب الماشوني فخدمت حركته وانطفأ لهيبها. وحدث في عام 1952 أن قامت قبيلة الكيكيو التي تمثل حركة الماوماو

بمحاولة جادة ترمي من ورائها إلى استعادة استقلالها المسلوب، إلا أنها لم تحقق النجاح الذي كان ينتظر منها.

وليس ثمة دليل أقوى من الوقائع التي روينها تؤكد لنا أن الحكم الأوروبي القائم اليوم في أفريقيا قد اعتمد ولا زال يعتمد على القوة العسكرية ..

ولم يحدث أن قام الأفريقيون مرة يطالبون باستقلالهم وحريتهم إلا وتنطلق المدافع الأوروبية تعبر عن إجابة السيطرة الأوروبية وموقفها من حرية الأفريقيين.

وأخيراً فقد الرجل الأفريقي إيمانه بسهمه الهزيل الذي لا يستطيع أن يأتي له بالحرية التي سلبها منه البيض، لقد أكدت له مدافع الأوربيين مدى قوتها وتأثيرها.

إلا أن هذا الأفريقي سرعان ما طور فلسفة اليأس، وحاول أن يفيد من موقفه السيئ، وإذا كان قد فقد إيمانه بسهمه الضعيف فإن ذلك لم يفقده إيمانه بحقه في الحرية، لقد ظل قلبه يهفو إلى هذه الحرية التي يعتبرها حقاً طبيعياً لكل إنسان عادي، ورأى أنه إذا كان قد فشل في الوصول إلى حقه عن طريق الوسائل الحربية لأن عنصر التكافؤ بينه وبين غريمه في هذا المجال يكاد يكون مفقوداً، فلماذا لا يحاول عن طريق آخر، فقد يحقق لنفسه هذه المرة ما عجز عن تحقيقه في المرات السالفة وأخيراً وبعد أن اقتنع برأيه أخذ ينظم كتابه السلمية على صورة جديدة.

وهكذا ظهرت في مختلف أنحاء أفريقيا كثير من المنظمات السياسية

التي أخذت تعمل على تحقيق الحرية لشعوب أفريقيا، وسنختار طائفة منها لكي نوضح مرة أخرى أن حب الأفريقيين للحرية شيء أصيل في نفوسهم أصالة أرضهم وبلادهم، وإذا كانوا قد عجزوا عن تحقيق الحرية عن طريق الثورات المسلحة فليعملوا على تحقيقها عن طريق المنظمات السلمية.

وتدل هذه القائمة التي تضم أسماء بعض المنظمات السياسية الأفريقية دلالة واضحة على أن جذوة الحرية لم تنطفئ يوماً ما في قلب الرجل الأفريقي. وقد تعبر هذه المنظمات السياسية عن أهداف الأفريقيين بطرق مختلفة وقد تستخدم أساليب مختلفة. ولكنها تشترك جميعاً في شيء واحد هو العمل على تحقيق الحرية للشعوب الأفريقية.

وهذا ثبت بأسماء بعض هذه المنظمات:

- 1- المؤتمر الوطني الأفريقي (جنوبي أفريقيا).
- 2- الرابطة المتحدة لساحل الذهب وهي المنظمة التي حل محلها حزب دكتور كوامي نكروما س. ب. ب. عام 1950.
- 3- الاتحاد الوطني الأفريقي في تنجانيقا.
- 4- المؤتمر الوطني الأفريقي في أوغندا.
- 5- المؤتمر الوطني الأفريقي في روديسيا الشمالية.
- 6- المؤتمر الوطني الأفريقي في نياسا لاند.
- 7- المؤتمر الوطني الأفريقي في روديسيا الجنوبية.

8- المؤتمر الأفريقي في كينيا.

ونحب أن نكرر هنا مرة ثانية أن هذه المنظمات السياسية الأفريقية جميعها قد ظهرت نتيجة عدم استطاعة الأفريقيين تحقيق استقلال بلادهم عن طريق الثورات المسلحة، ذلك لأن التكافؤ بين الجانبين - كما سبق أن قررنا - كان معدوماً، إذ كيف يوجد التكافؤ بين جيوش منظمة تستخدم المدافع السريعة الطلقات وبين جماعات متحمسة ليس لديها ما تدافع به عن نفسها سوى السهام والأقواس.

ولكن الأوروبيين بالرغم من كل ذلك لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه المنظمات السياسية، لقد أخذوا يضعون التشريعات المختلفة لوقف نشاطها وتعويقها عن القيام برسالتها كمنظمات تعمل على تحقيق الحرية السياسية لشعوب أفريقيا، ولكن هذه المنظمات قد استطاعت أن تقف أمام مختلف المحاولات الأوربية، وظل هدفها الرئيسي الذي تعمل على تأكيده هو حرية كل شعوب أفريقياً، وسنرى الآن ونحن نستعرض برامج بعض هذه المنظمات. كيف استطاعت أن تثبت وجودها وتؤدي رسالتها بالرغم من كل المعوقات التي كانت توضع في طريقها.

تأسس المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوبي أفريقيا عام 1912، وكان يطلق عليه يومذاك اسم "مؤتمر الباندو" نتيجة لصدور قانون اتحاد مستعمرة الكاب والنااتال وولاية الأورانج الحرة والترنسفال عام 1910 وهو القانون الذي أعلن صراحة أنه لا يمكن الاعتراف بالأفريقي مواطناً في الاتحاد.

وهكذا أصبح مبدأ اللون والجنس هو القاعدة المطلقة في تحديد القيمة الإنسانية، وسرعان ما كان هذا التهديد المباشر لحرية الأفريقيين سبباً في ظهور الوحدة القوية بين القبائل التي كانت متعادية، فتناست قبائل الوزلو والأكسهوسا والسوتو ما كان بينها من منازعات وصراعات واتحدت جميعها في شعب أفريقي واحدة ضد العدو المشترك الذي يتمثل في الحكم الأوروبي.

وفي عام 1913 أصدرت حكومة اتحاد جنوبي أفريقيا قانون الأراضي ونصت فيه على تخصيص بعض الأماكن الريفية لإقامة السود، ولم يقف المؤتمر أمام هذا القانون الشائن مكتوف اليدين، بل قام بجمع الأموال وأرسل في عام 1914 وفداً قوياً إلى إنجلترا لعرض القضية الأفريقية على المسؤولين في لندن، إلا أن هذا الوفد لم يستطع أن يحصل على شيء، فعاد إلى جنوب أفريقيا مرة ثانية، ونشط المؤتمر بعد ذلك نشاطاً ملحوظاً بالرغم من المعارضة القوية التي كان يلقاها من الرسميين البيض. وفي عام 1952 نظم المؤتمر حركة المقاومة السلبية للوقوف ضد أي تشريع يهدف إلى التمييز العنصري في جنوب أفريقيا.

وبالرغم من حركة المقاومة الواسعة التي قامت بها حكومة الاتحاد، إلا أن الأفريقيين كانوا مستعدين لأن يشتروا حريتهم وكرامتهم الإنسانية بأي ثمن ولو كان السجن والتعذيب والسخرة، ولكن حكومة الاتحاد بما لديها من إمكانيات وقوة قد استطاعت أن تخمد جذوة حماسة حركة المقاومة الأفريقية.

ويعتبر كفاح الشعب الغاني دراسة طيبة للحركات السياسية التي قامت في أفريقيا للعمل على تحقيق استقلال الشعوب الأفريقية وحريتها. فعندما تأسس المؤتمر المتحد لساحل الذهب لم يكن يهدف إلا إلى تحقيق الحريات السياسية لشعب غانا، ولم يأت عام 1949 حتى حل حزب المؤتمر الشعبي الجديد مكان هذه المنظمة السياسية، وعن طريق هذا الحزب وصل نكروما إلى مكان الزعامة عام 1951 وأصبح القائد السياسي لحركة التحرر الأفريقي في غانا، وإلى هذا الحزب أيضاً يرجع الفضل في تحقيق الاستقلال لدولة غانا في السادس من شهر مارس عام 1957، وقد ظل شعار هذا الحزب دائماً منذ أول يوم ظهر فيه على المسرح السياسي: (نريد الحكم الذاتي)

لقد تساءلنا في بداية هذا الفصل عما إذا كان لدى شعوب أفريقيا قبل مجيء الرجل الأبيض إلى بلادهم إدراك لمفهوم الحرية، ولقد أوضحنا عن طريق الدراسة اللغوية أن الحرية كانت موجودة فعلاً في أفريقيا قبل وصول البيض، كما أوضحنا كذلك عن طريق الوقائع التاريخية كيف كانت القبائل الأفريقية تحارب من أجل استعادة استقلالها والمحافظة عليه قبل الاحتلال الأوروبي وبعده أيضاً.

وهكذا ثبت لدينا أن كفاح الأفريقيين من أجل استقلالهم وحريتهم ليس بضاعة جديدة أدخلها البيض إلى أفريقيا، بل هو قديم قدم كفاح الأوروبيين من أجل الحصول على استقلالهم أيضاً.

إن إدراك الرجل الأفريقي للحرية السياسية إدراك أصيل، وإذا كانت

الدول الأوروبية قد نجحت نجاحاً مؤقتاً في إخماد جذوة الحماس من أجل الاستقلال والحرية عند شعوب أفريقيا فإنها لن تستطيع بحال من الأحوال أن تطفئ هذه الجذوة أو تقضي عليها قضاء نهائياً.

وليسمح لي القارئ أن أستعير هنا عبارة فرويد العالم النفساني الشهير إذ يقول: "إن الرغبة المكبوتة في منطقة اللاوعي لا تموت، ولكنها تظل تنتظر الفرصة المواتية لكي تصبح عاملاً فعالاً".

فالقومية الأفريقية إذن ليست إلا رغبة الرجل الأفريقي في أن يحكم نفسه بنفسه وهي الرغبة التي يكتبها الأوروبيون وهم لا يستطيعون أن يقضوا عليها، تعود هذه الرغبة في الظروف المواتية فتؤكد وجودها وحياتها كعامل نشيط فعال.

والأفريقيون عندما يكافحون من أجل استقلال بلادهم لا يحاربون من أجل الحصول على شيء يعتبر من ممتلكات الرجل الأبيض وحده - كما يدعي بعض الأوروبيين - ولكنهم يحاربون من أجل استرداد حق من حقوقهم سرقه الرجل الأبيض منهم.

وإذا كان هناك شيء تؤكد القومية الأفريقية ويبرهن عليه وجودها فهو أن الرجل الأفريقي ليس أقل حباً للحرية من الرجل الأمريكي أو الأوروبي، ولا شك في أن الغربيين يخطئون كثيراً عندما يظنون أن الحرية هدف عظيم بالنسبة للأوروبيين فقط، ليست كذلك بالنسبة للأفريقيين.

لقد أكد تاريخ أفريقيا، كما أكدت لغاتها أيضاً أن الرجل الأفريقي يؤمن بالحرية إيماناً عميقاً. فلقد حارب من أجلها وقاسى في سبيلها الشيء

الكثير، بل ومات وهو يدافع عنها.

والقومية الأفريقية ليست في حقيقتها إلا نداء قوياً يوجهه الرجل الأسود للدول الأوربية يقول فيه بصراحة "أعطونا حريتنا التي سلبتموها منا" وتتجمع كل شعوب أفريقيا اليوم لتصرخ في وجه البيض بهذا النداء. ولكن الدول الأوربية تصم آذانها عن هذا النداء وترفض أن تمنح الشعوب الأفريقية حقها في الحرية والاستقلال.

ولقد كان مستر بازيل دافيدسون - المؤلف والصحفي الإنجليزي على حق حين قال (تقرير عن جنوبي أفريقيا ص 71) : "إن كثيراً من الناس يتحدثون اليوم عن حاجة الأوربيين إلى أن يمنحوا بعض الامتيازات ويظهروا بعض الدلائل التي تساعد على كسب الثقة في الزعامة الأوربية، ولكن الأفريقيين لا يطالبون بشيء من الامتيازات وليسوا في حاجة إلى مظاهر السخاء والكرم الأوربي، أنهم لا يطالبون إلا بحقوقهم الطبيعي فقط، يطالبون بالمساواة العادلة بين جميع الأفراد دون تمييز يقوم على أساس اللون أو الجنس، وليس هناك طريق وسط لتحقيق هذا الطلب، فالمسألة إما مساواة مطلقة أو سيادة جنس على آخر".

الديمقراطية في أفريقيا

سيتهول

sayatahual

يدعي الكثيرون من الأوروبيين والأمريكيين بأن الرجل الأفريقي لم يكن يعرف الديمقراطية قبل عصر الاحتلال الأوروبي لأفريقيا. أو بعبارة أخرى يدعي هؤلاء المسرفون في التحامل بأن الرجل الأبيض هو وحده الذي أدخل الديمقراطية إلى أفريقيا، ويتساءلون هل يستطيع الأفريقيون أن يدبروا حكوماتهم على أسس ديمقراطية فيما لو منحوا استقلالهم وحريتهم؟ وهل يستطيعون حينئذ أن يفهموا الديمقراطية التي تعتبر الوسيلة الأساسية للرجل الأبيض في حكمه؟

أن الديمقراطية - كأى شيء رائع وجميل في هذا العالم - تنتمي خطأ إلى الجنس الأبيض، ولكن الحقائق التاريخية تؤكد أن الديمقراطية ليست حكراً على البيض دون سواهم. فقد ثبت أن الشعوب الأخرى كانت تعرف النظم الديمقراطية وتطبقها قبل أن يكون لها أي اتصال بالعالم الغربي، ولولا ضيق المكان هنا لتحدثنا عن هذه الشعوب، ولكننا سنكتفي بأفريقيا فقط لأنها محور الحديث في هذا الكتاب.

فمن الظواهر البارزة التي يلاحظها أي إنسان يدرس المجتمعات الأفريقية هي أن شعب أفريقيا شعب ديمقراطي إلى حد كبير، فالأمور لا

يمكن أن تستقر ما لم يقل كل فرد ما لديه، والمجالس الأفريقية التي سنتحدث عنها بعد قليل تعطي الحق لكل مواطن في أن يعبر عن رأيه تعبيراً حرّاً، لا في المسائل الخاصة فحسب بل كذلك في الأمور العامة التي تتعلق بالجماعة كلها. ولا يستطيع الحاكم الأفريقي أن يبت في أمر من الأمور دون أن يستشير الرأي العام ويلجأ إليه، وعبارة Batini abantu عند قبيلة الأنديبيلي في روديسيا الجنوبية معناها "ماذا يقول الناس؟" كما أن عبارة (Nxa abantu khalungile) تعني "إذا وافق الناس فإن كل الأمور على ما يرام".

وهكذا نرى أن الجماهير في المجتمع الأفريقي تعتبر أساس السلطة الدستورية الصحيحة. وقد كان كثير من المراقبين الأوربيين والأمريكيين يظنون أن الزعيم هو وحده أساس السلطة في أفريقيا، إلا أنهم رأوا فيما بعد مدى أهمية الجماهير التي كان يربطها بالزعيم نوع من العلاقة التي تقوم على أساس وجود روح ديمقراطي قوي لا يستطيع الزعيم أن يتحلل منها. ورأوا أن تنفيذ أي برنامج لا يمكن أن يتم دون موافقة كل أفراد القبيلة أو العشيرة.

ومن الثابت لغوياً أن كلمة "ديمقراطية" لا توجد في كثير من لهجات شعب البانتو ولكن عدم وجودها في أي لغة لا يعني عدم وجود مدلولها العملي عند أصحاب هذه اللغة، فالمعروف أن اللغات الأنجلوساكسونية خالية هي الأخرى من كلمة "ديمقراطية" ولا نستطيع أن نقول أن عدم وجود هذه الكلمة في اللغة الأنجلوساكسونية يعني عدم وجود الديمقراطية بشكلها العملي بين شعوب هذه اللغات. وكذلك الحال أيضاً في اللغات

الفرنسية والأسبانية والهولندية والألمانية والبرتغالية والأفريكانية.

أن كلمة "ديمقراطية" الحديثة التي تشاهدها في كل اللغات المعاصرة قد اشتقت كلها في الأصل من الكلمة اليونانية demokratia التي تعني "حكم الشعب" ولكن هذا لا يصح أن يعني أن الشعوب الأخرى غير اليونان لم تكن لديها فكرة عن النظم الديمقراطية، إنما يعني فقط أن هذه الشعوب قد استعارت الكلمة اليونانية لكي تعبر بها عن معنى كان موجوداً فعلاً لديها.

ولو أتيج لنا أن ندرس اللغات الأفريقية لعرفنا أن عبارة ukubibusa عند شعوب الأندييلي في روديسيا الجنوبية تعني "الحكم الذاتي" وأن عبارة Kuzwatonga تعني في اللغة الشوانية "حق تقرير المصير".

ونحن لكي نؤكد أن الديمقراطية كانت حقيقة موجودة لدى شعوب أفريقيا يجب علينا أن ندرس نظمهم القضائية لأن ذلك يعطينا فكرة واضحة عن نظم الحكم الأفريقية التي كان يسودها الطابع الديمقراطي في كل خطوة من خطواتها. ثم نستطيع بعد ذلك أن نتبين هذا التيار في تنظيماهم السياسية.

فالمعروف أولاً أن الفريقين ليس لديهم مصادر قديمة مدونة يستطيع الباحث أن يعتمد عليها في معرفة ماهية القوانين والتشريعات والتقاليد الأفريقية كما هو الحال مثلاً عند الشعوب الأوربية، وهذا ما جعل الكثيرين من الأوربيين يصلون إلى نتائج خاطئة عن الشعوب الأفريقية، فقد

ادعوا أن القبائل الأفريقية لم تكن لديها أي نظم قانونية، كما لم تكن لديها أيضاً سجلات مدونة يمكن الاحتفاظ بها في المحاكم الأفريقية. وإذا كان صحيحاً أن الأفريقيين لم تكن لديهم سجلات يدونون فيها قوانينهم وحوادثهم فإن هذا لا يصح أن يعني أن الأفريقيين لم تكن لديهم نظم قضائية محددة وواضحة. وإذا كان الأوروبيون - نظراً للإمكانيات التي أتيحت لهم - قد استطاعوا أن يدونوا قوانينهم وأحداثهم في سجلات يحتفظون بها، فإن الرجل الأفريقي الأمي قد كان يعتمد على ذاكرته في هذا الصدد أي أن قوانين الشعب الأفريقي كانت تعيش في ضمائره لا في أوراق يحتمل أن تلعب بها يد الأقدار، وليس هذا دفاعاً عن أسلوب الأفريقيين، بل أنني أميل إلى تفضيل طريقة التسجيل والتدوين في عصر تلعب فيه المطابع دوراً خطيراً في حياة الفكر العالمي.

وإن الدراسات "الأنثروبولوجية" (التاريخ الطبيعي وعلم الإنسان) التي قام بها الباحثون الأوروبيون والأمريكيون قد أكدت أن نظم السلطة القضائية التي كانت تسود أفريقيا قبل عصر الاحتلال الأوروبي بزمان طويل كانت على مستوى من التطور والنضوج يدعو إلى الدهشة والإعجاب.

ولقد كتب مستر س. ف. ناديل تحت عنوان "المعقول اللامعقول في القوانين الأفريقية" يقول:

"بالرغم من عدم وجود قانون مدون لدى قبيلة اللوزي، فإن لها مجالس تشريع واجتماعات تشبه المحاكم تعتمد على إجراءات قانونية غاية في الدقة بل نستطيع أن نقول دون مبالغة أن لديها فلسفة قانونية كاملة،

فقوانين قبيلة اللوزي التي لم تفسدها ركافة الدليل ولا طابع الخرافة ولا أي نوع من أنواع المحاباة كانت قبيلة تحكمها أساليب المنطق القضائي الصارم".

وقد أنشئت في الجامعات الموجودة الآن في أفريقيا فروع للتخصص في القوانين القبلية الأفريقية، وقد وجد أنها قوانين متكاملة من حيث المنهج والموضوع.

كما اعترف بعض القضاة البريطانيين الذين أتحت لنا فرصة مناقشتهم حول أوجه الاختلاف والتشابه بين القانون الإنجليزي وقانون قبيلة الأنديبيلي، واعترف هؤلاء القضاة بأن القانون الإنجليزي إذا كان في بعض الأحوال أفضل من قانون الأنديبيلي إلا أن التجارب قد أثبتت أن قانون الأنديبيلي كثيراً ما كان تطبيقه أجدى وأفضل من القانون الإنجليزي.

وتنص تقاليد شعوب الشونا في روديسيا الجنوبية على أن رئيس الأسرة هو صاحب الحق في الفصل في الحكم الابتدائي، أما الاستئناف فمن حق رئيس القرية الذي يعرض بدوره على الزعيم الأعلى ليأخذ دوره الأخير. وليس لرئيس الأسرة أو القرية الحق في نظر كل القضايا، بل أن سلطتهم في الحكم لا يصح أن تتجاوز نوعاً معيناً منها. أما الجرائم الجنائية الخطيرة كالقتل مثلاً فليس لأحد حق الفصل فيها سوى الزعيم الأعلى.

والدارس لتاريخ القبائل الأفريقية يجد أن المجالس القضائية كانت موجودة في كل مكان من أفريقيا قبل مجيء الرجل الأبيض إليها بزمان طويل، وهي مجالس أفريقية لحماً ودماً في أصلها وتكوينها وإجراءاتها.

وليس أدل على ذلك من وجود كلمة مجلس في معظم اللغات

الأفريقية.

فكلمة	dare	عند	الشوانيين	معناها	مجلس
وكلمة	handla	عند	الأنديبيليين	معناها	مجلس أيضاً
وكلمة	ihandla	عند	الزوليين	معناها	مجلس أيضاً
وكلمة	ihunga	عند	الأكسهوسيين	معناها	مجلس أيضاً
وكلمة	kgoda	عند	النسوانيين	معناها	مجلس أيضاً

ولهذا المجلس نظام غاية في الدقة والطرافة، فهو يعقد عادة في الهواء الطلق برياسة الزعيم أو نائبه يساعده عدد من الأعضاء الذين يختارون من بين أعيان المنطقة، ويسمح لكل ذكر عاقل بالغ بحضور الجلسات والاستماع إلى الإجراءات التي تتم فيها، كما يسمح بحضور أصدقاء المدعي والمدعى عليه وأقاربهم، وأي شخص آخر حتى ولو لم تكن له صلة بالقضية، فيما عدا النساء والأطفال، وتتم الإجراءات على النحو التالي:

يقوم المدعي فيعرض شكواه من المتهم، ثم يسمح بعد ذلك للمتهم بالدفاع عن نفسه وتتخذ شهادة الشهود في النهاية، وليس لأحد الحق في أن يوقف المدعي أو المدعى عليه أو الشهود عن الاسترسال في الحديث، وبعد سماع الشهود تنهال الأسئلة من رئيس المجلس أو أحد كبار الأعضاء. وقد يستغرق سماع القضية في بعض الأحيان نصف يوم أو يوماً أو عدة أيام طبقاً لطبيعة القضية المعروضة على المجلس.

وفي النهاية، وبعد سماع أطراف النزاع وكذلك الشهود يقوم الرئيس أو نائبه بتلخيص القضية في ضوء الأدلة والبراهين التي لديه، ثم ينطق بالحكم في حضرة الجماهير، فإذا كان المتهم قد أدين فعلاً فإنه يقول: "إنك لا

تستطيع أن تهرب من العدالة فأنت مذنب" ..

إن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن هذه القوانين والإجراءات غاية في البساطة والمرونة ولكنها في الوقت نفسه فعالة وإيجابية، ولذلك فلم تكن الحاجة ماسة إلى الاستعانة بالمحاميين للدفاع أو لعرض القضايا، والمحاكم الوطنية مفتوحة للأغنياء والفقراء على السواء وليس السماح بحضور أقارب كل من طرفي النزاع وأصدقائهما إلا تأكيداً للعدالة الحقيقية. ولن نستطيع - ونحن نتحدث عن المجالس الأفريقية - أن نخفل الحديث عن الطريقة التي كانت تتبعها القبائل الأفريقية عند افتتاح جلسات هذه المجالس.

فقد كان الشعب الأنديبيلي يختار واحداً من وجهائهم ليقف أمام الجماهير ويخطب فيهم قائلاً: "عليكم أيها الناس أن تلتزموا السكينة، وأن تجلسوا جميعاً في هدوء تام لأن المحاكمة ستبدأ الآن".

ثم تسير الإجراءات في المحكمة من أول جلسة إلى آخر جلسة في جو من الجدية والوقار، وأي فرد يبدو في تصرفاته أي مظهر من مظاهر الاستخفاف يعاقب بالغرامة لأنه أهان المجلس كله.

وبالرغم من أن شعب الأنديبيلي شعب يميل بطبعه إلى الفكاهة والمرح، إلا أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك أثناء نظر القضية في المجلس. فإذا حدث أثناء المحاكمة ما يثير الضحك، فإن الجماهير كانت تمسك نفسها حتى عن الابتسام، حتى إذا ما رجعت إلى بيوتها أخذت استعيد المواقف المثيرة وتستغرق في الضحك كما تشاء.

أن المحكمة كانت عند الشعب الأندييلي مكاناً مقدساً، وكانت القضايا من أهم الموضوعات الجادة، لأنها مسألة تتعلق بحماية الجنس البشري وصيانة العدالة، ولذلك فقد كانت الفكاهة مظهراً من مظاهر الاستخفاف بحياة الجنس البشري كله.

أما طريقة افتتاح المجالس عند قبيلة اليوروبا في نيجيريا فقد كانت تبدأ أيضاً بالخطبة التقليدية التي يلقيها أحد الأعضاء في الجماهير وفيها يقول كما ذكر في كتاب (قوانين اليوروبا وتقاليدها ص 43):

"أيها الناس أألموا الهدوء والأدب، وأخفوا سعالكم، واتركوا النساء مع أطفالهن كي يعتنين بهم ويمنعنهم من الصراخ والبكاء، وليقف كل إنسان منكم فمه، فالخيط الذي يربط الإنسانية قد انقطع ويقوم القضاة الآن بوصلة، وأي إنسان تحدثه نفسه بمضايقة هؤلاء القضاة سيعامل أقصى معاملة".

وهكذا نرى أن المحاكم الوطنية الأفريقية تتميز بطابعين واضحين هنا:

1- طابع الجدية التي تصل إلى حد التزمّت.

2- اعتمادها على الشعب في سلطتها ووجودها.

إن الأحكام التي تصدرها المجالس يجب أن تكون متفقة مع الدور العام ومطابقة للقوانين التقليدية التي اصطلحت عليها الجماهير، وإلا قام الشعب بإعلان الثورة الحقيقية على الكبار، لأنه يحس أنهم قد غيروا قوانينه بما يرضي أهواءهم، والكبار وحدهم هم الذين يتعرضون لغضب الشعب عندما يثور، والرجل الذي يؤيد العدالة ويحافظ عليها يصبح في

نظر الأفريقيين بطلاً حقيقياً، بل أن قبيلة الشونا تنظر إليه على أنه "إله" ويطلق عليه الأندبيليون لقب "الملك العظيم".

ولقد عبر ألبرت شفيترز في كتابه "علم الأجناس ص 186" عبر عن إدراكه العميق لما عليه الرجل الأفريقي من مستوى أخلاقي ممتاز فقال:

"لم يصل الرجل الزنجي بعد إلى المستوى الذي يستطيع فيه أن يدرك تماماً ماذا تعني هذه الانتصارات الفنية للطبيعة كدليل على التفوق الروحي والعقلي. إلا أنه من ناحية أخرى يتمتع ببديهة صائبة لا تخطئ .. فهو يقيس الرجل الأبيض بموازين أخلاقية، فإذا ما وجده على مستوى خلقي طيب أمكن للرجل الأبيض أن يبسط نفوذه الأخلاقي عليه، أما إذا كان الأمر غير ذلك، فمن المحال أن يكون للبيض مكان في أفريقيا. أن طفل الطبيعة الذي لم تفسده الحياة الحديثة ولم تحوله إلى رجل صناعي - كما هو الحال معنا نحن معشر البيض - لديه إحساس مرهف بالعدالة والحكم، فهو يقيسنا بالمستوى الخلقي، وحينما يجد الطيبة والعدالة عند شخص يكون تقديره حقيقياً لهذا الشخص، يصرف النظر عن العظمة الخارجية التي تضيفها عليه بعض الظروف الاجتماعية، أما إذا لم يجد هذه الصفات عند أي شخص فإنه يزدريه ويحتقره، بالرغم من كل مظاهر الخضوع والاستسلام له".

وفي النشرة التي أصدرتها إدارة العلاقات العامة بعنوان: "أنت وخادمك" ووجهتها

للمهاجرين الأوروبيين في اتحاد روديسيا ونياسا لاند، جاء فيها هذا التحذير:

"إن أهم شيء يجب أن تفعله، وتحرص على تنفيذه هو أن تتخذ دائماً موقفاً عادلاً تجاه الرجل الأفريقي، لأن هذا الرجل يبحث دائماً بطبيعته عن العدالة والمروءة". وهكذا يتضح لنا مما سبق أن أفريقيا قد كانت لها نظمها الخاصة بها في القضاء قبل مجيء الرجل الأبيض إليها بزمان طويل. وأن مفاهيم العدالة والحكم وممارستها لم تكن شيئاً جديداً أدخله الأوروبيون إلى أفريقيا. وحينئذ فليس من العدل أن يدعي بعض الأوروبيين "أن الأفريقي ليس له إدراك صحيح للعدالة، وليس لديه فهم دقيق لفلسفة النظم القضائية، وأننا لو منحناه حريته فإن الظلم سيسود أفريقيا بأسرها".

بعد ذلك ننتقل إلى نقطة هامة في الموضوع هي: هل كان للأفريقيين نظم ديمقراطية قبل مجيء الرجل الأبيض إليها؟ والإجابة على هذا السؤال ترتبط بسؤال آخر يردده الأوروبيون كثيراً وهو:

هل يمكن أن نضمن أن يظل الرجل الأفريقي ديمقراطياً إذا منحناه حريته واستقلاله؟ وهل يفهم الديمقراطية بالمعنى الذي يفهمها به الرجل الأوربي؟

أما الجزء الثاني من السؤال الأخير، فالإجابة عليه قد تبدو أمراً معقداً ذلك لأن النظم الديمقراطية تتنوع وتختلف في مختلف الدول الغربية المتشابهة. فأعضاء البرلمان في بريطانيا ينتخبون لفترة لا تزيد عن خمس سنوات، أما في الولايات المتحدة فإن أعضاء الكونجرس ينتخبون لفترة محددة هي سنتان، وأعضاء الشيوخ لست سنوات، بينما ينتخب رئيس الجمهورية لمدة أربع سنوات. ولقد اعترف المراقبون البريطانيون أكثر من

مرة - بأنهم لا يفهمون طبيعة السياسات الأمريكية ويمكن أن يقال أيضاً نفس الشيء بالنسبة للمراقبين الأمريكيين تجاه السياسات البريطانية.

أما السياسة الفرنسية، فهي سياسة حيرت كل المراقبين الدوليين لأنها سياسة غير ثابتة، لا تعرف الاستقرار.

والنظام الديمقراطي في بريطانيا مرتبط - إلى حد كبير - بالنظام الاشتراكي، بينما ترتبط الديمقراطية الأمريكية بالنظام الرأسمالي، وعلى رأس الديمقراطية البريطانية نظام ملكي دستوري، بينما هي في أمريكا رياضية جمهورية.

وعلى الرغم من هذا الاختلاف في أشكال النظم الديمقراطية في كل هذه الدول فهناك عامل مشترك بينها جميعاً هو أن مصدر السلطات فيها جميعاً يتركز في يد الشعب، فهو وحده صاحب الحق في تولية الملك أو رئيس الجمهورية أو عدم توليتهما. كما أنه صاحب الحق أيضاً في إبقاء المشرعين في السلطة أو عزلهم، ومن هنا يتضح لنا أن الديمقراطية هي إرادة الشعب. فهؤلاء الذين يتولون الحكم يجب أن يعتمد حكمهم على رضا المحكومين رضا كاملاً حراً، فلكي تكون الديمقراطية ديمقراطية حقيقية يجب أن تعتمد على إرادة الأغلبية، فليس هناك معنى للديمقراطية سوى أنها صوت الغالبية في إدارة شئون الدولة، سواء أكانت هذه الدولة في أوروبا أم أمريكا أم آسيا أم أفريقيا.

وهنا ننتقل إلى الخط الرئيسي من الموضوع لنعرف ما إذا كانت نظم الحكم والسياسة في أفريقيا تقوم على أسس ديمقراطية أم تعتمد على

السلطة الديكتاتورية .. ومنذ أن كانت الأشكال السياسية للدولة تتركز حول الزعيم أو الملك في البلاد الأفريقي، فإننا سنتحدث عن طريقة انتخاب هذا الملك والزعيم لنعرف إلى أي حد كان الأفريقيون يعرفون الديمقراطية قبل مجيء الأوروبيين إلى بلادهم.

كان انتخاب الزعيم أو الملك يتم دائماً عن طريق الشعب، ولما كان هذا الشعب هو صاحب الحق في تنصيب الملك أو الزعيم، فهو أيضاً صاحب الحق في عزلهما إذا أساءا إلى الشعب. ولقد كتب "لوافيدا بتر" في كتابه "ساحل الذهب في مرحلة الانتقال" يذكر كيف كان يتم انتخاب الزعيم في ساحل الذهب، وإلى أي حد من الديمقراطية كان موقف الشعب من هذا الزعيم.

فعندما يتولى الزعيم مقاليد الحكم، يطلب الشعب من الشيخ الذي يقوم بإجراء مراسيم التنصيب أن يبلغ رغبتهم إلى الزعيم، وهذه الرغبة تتلخص فيما تتضمنه هذه الوثيقة التقليدية:

"بلغ الزعيم، نيابة عنا، أننا نكره الطمع"

"وأننا لا نريد منه أن يسيء إلينا أو يشتمنا"

"ولا نريد منه أن تكون أذناه صماء عن سماع كلامنا"

"ولا نريد منه أن يتصرف في الأمور من تلقاء نفسه"

"ولا نريد أن تسير الأمور، كما تسير في كيومانزي"

"ولا نحب أن نسمع منه عبارة (ليس لدي وقت)"

"ولا نريد منه أن ينادي أحداً من أفراد الشعب بيا أحقق أو يا غبي"

ومن هذه الوثيقة يتبين لنا أن الشعب كان يعمل دائماً على حماية نفسه من استبداد الزعيم، لقد كان يطلب منه أن يستمع إلى صوت الشعب، وأن يتصرف طبقاً لإرادتهم لا طبقاً لإرادته هو. والزعيم - كمخلوق بشري - ربما تحدثه نفسه أن يفعل ما يرضي هواه، ويتجاهل رغبات الشعب، وحينئذ يقوم الشعب - الذي يملك سلطة عزله - بطرده من منصبه، وتولية غيره، وقد علق "راتاري" على هذا الموضوع في كتابه "الدستور وقانون قبيلة الأشانتي" يقول:

"إذا تصرف الزعيم تصرفاً شائناً لا يليق، وجب على مستشاريه من الشيوخ أن يحذروه سراً، وأن يطلبوا منه أن يكف عن كل ما قد يسيء إلى منصبه"

وكانت التصرفات التي تغضب الشعب من الزعيم هي: إسرافه في السكر، جريه وراء زوجات الآخرين، استبداده في معاملة رعيته، إهماله نصائح المستشارين، جلده للشباب .. الخ، وكان المستشارون في هذه الحالة يطلبون إلى الزعيم أن يسارع بمصالحة أصحاب الشكاوى سراً.

وهكذا يتضح لنا أن وجود الزعيم في منصبه أمر يتوقف إلى حد كبير على رضا الشعب وموافقته، فمن هذا الشعب يستمد الزعيم كل سلطاته، وهنا ندرك جوهر حقيقة الحكومة الشعبية الصحيحة. ولقد أكد "راتاري"، بعد دراسته العميقة لقوانين قبيلة الأشانتي، أن دستور الأشانتيين دستور ديمقراطي في كل إجراءاته.

ومن التقاليد المعروفة عند قبيلة اليوروبا أنه إذا أرسل الملك حملة عسكرية ثم فشلت فإنه يقتل نفسه قبل أن تصل حملته المهزومة إلى أرض الوطن، وإذا لم يقتل الملك نفسه فإن الشعب يرى أن تنفيذ القانون أمر لا بد منه، فيتولى بنفسه قتل الملك، وهكذا كان حق إعلان الحرب يعني الانتصار أو الموت بالنسبة للملك.

وإذا حدث أن أصبح الملك أو الزعيم أو أحد كبار الدولة مكروهاً من الشعب بسبب استعماله أسلوباً استبدادياً، فإن الشعب في هذه الحالة كان يلجأ إلى طريقة "الكيريكييري" وهي تتلخص في أن تصطف الجماهير في مواكب كثيرة تسير في القرى والمدن تردد أناشيد الهجاء، وتوجه ألفاظ الشتائم بصوت مرتفع إلى الملك أو الزعيم أو أي شخص لا يحبونه، وتواصل هذه المواكب سيرها حتى تصل إلى المكان المقصود، وهناك تأخذ في إلقاء الرمال والحجارة إلى داخل القصر الملكي أو بيت الزعيم الخ ليخبروه بذلك أنه لم يعد موضع الرضا أو القبول من الشعب.

ويظل سير هذه المواكب مستمراً لمدة ثلاثة أشهر، ويكون السير عاد أثناء الليل، وفي خلال هذه الفترة يكون أمام الشخص المقصود أمر من ثلاثة، إما أن يسارع إلى مواجهة الشعب والعمل على استرضائه، وإما أن يغادر البلد فوراً بعد أن يستقيل من منصبه، وإما أن ينتحر. وإذا حدث أن تجاهل الملك أو الزعيم مواكب "الكيريكييري" فإن الشعب في هذه الحالة كان يقوم بتشكيل هيئة من ذوي الأقنعة. من هؤلاء الذين يمتازون بقوة جسمانية كبيرة، وتقوم هذه الهيئة بإلقاء القبض على الشخص المقصود ليلاً ثم تقتله.

ولا شك في أن مثل هذه التقاليد قد تبدو في نظر شباب القرن العشرين أمراً عجيماً، ولكنها تؤكد في الوقت نفسه أن الملك أو الزعيم أو أحد كبار الدولة لم يكونوا أبداً فوق القانون، بل كانوا دائماً عبيداً له، وكان الشعب الذي يأتي بهم هو مصدر كل سلطانهم.

وبالرغم من أن شعب الأندييلي شعب عسكري تسوده نظم عسكرية صارمة للغاية، إلا أن الملك - حتى في ظل هذا النظام - كان يدين أيضاً بكل سلطاته للشعب، وقد حدث مثلاً في إحدى المناسبات أن أصدر الملك "لوبنجيولا" أوامره بقتل إحدى السيدات، وأرسل شخصين لتنفيذ هذا الأمر، ولما وصل هذان الشخصان إلى مكان المرأة في إحدى القرى البعيدة عثرا عليها، وكانت تحمل طفلها على ظهرها، فأمرها بإنزال الطفل حتى يقوموا بتنفيذ الأمر الملكي، إلا أنها رفضت ذلك، أصرت على أنه إذا كان لابد من قتلها، فلا بد أن يقتل طفلها معها، وحينئذ وجد الشخصان أنفسهما مضطرين إلى تنفيذ أمر الملك بأي صورة من الصور، فقتلا المرأة وطفلها وعادا إلى القصر الملكي. وسرعان ما انتشرت قصة هذه المرأة في كل مكان، فبادر العسكريون من أهل المنطقة بارتداء ملابس الميدان حاملين سهامهم ودروعهم وتوجهوا إلى القصر حيث طلبوا الملك بإبداء الأسباب التي دفعت إلى قتل الطفل دون مبرر، فاستشاط الملك غضباً، وأصدر أمره على الفور بتجميع رجاله واستعدادهم للمعركة، إلا أن الدهشة قد عقدت لسانه عندما رأى رجاله يطالبونه هم الآخرون بتوضيح سبب قتل الطفل، فاضطر إلى الوقوف أمام الجماهير وأعلن أنه لم يأمر إلا بقتل المرأة فقط، وهنا تعالت عبارات الاستحسان والرضا، وفي نفس

الوقت انطلقت الأصوات تطالب بإعدام الشخصين اللذين قتلا الطفل، وتردد الملك في البداية في تسليمهما، إلا أنه رضخ في آخر الأمر، وسلمهما حيث لقا مصير الطفل الصغير، وعندئذ أحس الشعب أن العدالة قد تحققت فعلاً وأن الملك لا يستطيع أن يكون أبداً فوق رغبات شعبه.

وحدث مرة أخرى أن كان الملك "لوبينجيولا" مستشار يعتمد عليه كل الاعتماد يدعي "لوتش كاهلاً بانجانا"، وكان هذا المستشار يعلي دائماً من قدر القوات البريطانية، فنصح الملك بعدم مهاجمة المستوطنين البريطانيين في بلده، ووافقه الملك على ذلك.

وعندما عرضت مسألة القيام بالهجوم الشديد السريع على الغزاة البيض وقف الملك ومعه مستشاره "لوتش" ليعلننا معارضتهما لهذه الفكرة. فأدرك الشعب أن "لوتش" ليس إلا رجلاً خائناً لبلاده وأنه يستحق الإعدام فوراً، وأرغم الشعب الملك على أن يعلن الحرب.

فقامت هذه الحرب الشهيرة عام 1893 ضد القوات البريطانية وضد رغبة الملك، وهنا أعلن الشعب أن ملك الأنديبيلي ليس له صوت من نفسه، فصوته الحقيقي هو صوت شعبه فقط. ويقول الأنديبيليون:

"إن الملك هو الشعب، والشخص الذي يحتقر ملكنا، لا يحتقره هو وإنما يحتقرنا نحن، والذي يحترم ملكنا إنما يحترمنا نحن، فالملك ليس إلا نحن".

وعندما كان يموت أي ملك من ملوك الأنديبيليين، كان الشعب

يقول: "لقد سقط الجبل" ومعنى ذلك أن الشعب كان ينظر إلى الملك على أنه الجبل الشامخ لتقاليد الأمة وقوانينها وتاريخها ومستقبلها وطموحها، بل كان في اختصار تجسيدا لكل الشعب. ولكي يكون الملك ملكاً يجب أن يكون دائماً موضع رضا شعبه وحبهم. وعندما لم يعد "شاكا" ملك الزولو موضع الرضا من أفراد شعبه تركوه وراحوا يخدمون ملوكاً غيره كانوا أقرب إلى قلوبهم منه، ولكن كراهيتهم لشاكا ظلت قائمة وظلوا يتربصون به الدوائر حتى قتلوه.

وهكذا يتضح لنا من هذا العرض السريع الذي قدمناه أن مبدأ الحكومة الشعبية قد كان موجوداً في أفريقيا، وإن من الخطأ التاريخي البين أن يدعي أحد أن الرجل الأفريقي لم يكن يعرف الديمقراطية قبل مجيء الرجل الأبيض إلى بلاده، فلقد ظهر لنا كيف أن الملك الأفريقي لم يستطع أن يستمد سلطته إلا من شعبه، ومن شعبه فقط، كما ظهر لنا أيضاً أن فكرة الملك الدستوري أو زعيم الدستوري هي فكرة أفريقية 100% وكذلك فكرة الحكومة الشعبية وإننا لنرى حتى في أصغر وحدة إدارية - وأعني بها القرية - أن فكرة الحكومة الشعبية يجب أن تراعى إلى أقصى حد، فلقد كان لأي مواطن في القرية حريته الكاملة في أن ينتقل إلى أية قرية أخرى إذا لم يكن راضياً عن رئيس قريته، وكان رئيس القرية مضطراً إلى كسب حب كل مواطنيه حتى لا يهاجروا إلى قرى أخرى ويتركون بدون شعب. وإذا كان جوهر الديمقراطية هو "إرادة الشعب" فإننا نستطيع أن نقول في بساطة أن الأفريقيين قد كانت لديهم ديمقراطية منذ فجر تاريخهم.

فهل صحيح بعد ذلك كله أن الدول الأوربية هي التي أدخلت

الديمقراطية إلى أفريقيا؟

إن النظرة السطحية قد تربط وجود الشعب الأبيض في أفريقيا بظهور الديمقراطية فيها، وقد يظن بعض الأجانب أن الشعب الأبيض هو الذي علم أفريقيا معنى الديمقراطية، وهذا غير صحيح بالمرّة، فإن الأوربيين لم يعلموا الأفريقيين إلا الدكتاتورية، لأنهم تعودوا أن يحكموا شعب أفريقيا بناء على صوت الأقلية متجاهلين أصوات الأغلبية، والعلاقة التي قامت تقوم بين الأوربيين والأفريقيين لا تعتمد إلا على أسس دكتاتورية، فالأوروبي رجل مفروض بالقوة ولازال مفروضاً أيضاً بالقوة على الشعب الأفريقي. فكيف يمكن أن نقول أن الأوربيين هم الذين أدخلوا الديمقراطية إلى أفريقيا؟ وما هي هذه الديمقراطية التي يتحدثون عنها؟ هل هي الديمقراطية الأوربية المعقدة التي لا يمكن أن نتبين وجهها الصحيح؟

أن الأفريقيين قد عاشوا حياة أسرية وقبلية وعشيرية في جو من التآلف والتعاون، وحينما توجد هذه الصورة في أي مجتمع توجد الديمقراطية الحقّة، بل عندما يعيش أفراد شعب حياة جماعية متألّفة - وهو ما حدث ويحدث في أفريقيا - تكون الديمقراطية أساساً لعلاقاتهم بعضهم مع بعض.

أن تحقيق النظام الديمقراطي لا يمكن أن يفرض بالقوة، ولكنه يأتي نتيجة إرادة الأغلبية، وهذا ما آمن به الأفريقيون وطبقوه في بلادهم منذ أقدم عصورهم التاريخية. فالشعب هو الذي كان ينتخب الحاكم وهو الذي كان يعزله، وسلطته مستمدة من شعبه لأنه مصدرها الوحيد. أما الحاكمون

الأوروبيون في أفريقيا فهم الذين يعينون أنفسهم في مناصب الحكم والإدارة ويستمدون سلطتهم من أنفسهم لا من الشعب. والحكومات الأوروبية في أفريقيا لا تعتبر نفسها مسئولة إلا أمام الأقلية الأوروبية، أما الأغلبية الأفريقية فليس لها عندها وزن ولا اعتبار، ولم تعد هذه الأغلبية ظل الديمقراطية الأوروبية صاحبة الحق في تنصيب الحاكم أو عزله.

ولقد كان الحاكم الأفريقي قديماً مسئولاً أمام شعبه، فأصبح اليوم مسئولاً أمام السلطة الأجنبية، وهكذا لم يعد الزعماء الأفريقيون يمثلون إرادة شعوبهم، بل أصبحوا يمثلون إرادة السلطة الأجنبية، وتتظاهر السلطات الأوروبية بأنها تعمل على المحافظة على هيكل الزعامة الأفريقية والنظام الملكي الأفريقي القديم في الوقت الذي تجرد فيه هذه الزعامة وهذه الملكية من جوهرها الحقيقي، إن سلطة الملوك والزعماء الأفريقيين لم تعد مستمدة في ظل الحكم الأوروبي من شعوبهم، بل أصبحت مستمدة فقط من الحاكم الأوروبي الأبيض.

ومن هذه الزاوية تعتبر القومية الأفريقية حركة مناهضة للدكتاتورية الأوروبية، بل هي حرب من أجل تحقيق الديمقراطية التي كانت تتمتع بها شعوب أفريقيا قبل مجيء الرجل الأبيض إلى بلادهم.

إن شعوب أفريقيا اليوم تطالب بحق تقرير المصير، وتأكيد الحكم الذاتي، وهي النظم التي ولدوا في ظلها، وعاشوا يتمتعون بها قبل أن يعرف الرجل الأبيض طريقه إلى بلادهم.

الفهرس

- وادي النيل.....5
- أ. ج. أركل A. J. Arkell5
- أفريقيا الشمالية.....14
- أ. أ. كوابونج A. A. Kwapong14
- مملكة أكسوم.....26
- ج. و. ب. هنتنجفورد G. W. B. Huntingford26
- العرب المسلمون في أفريقيا.....36
- برنارد لويس Bernard Lewis36
- ممالك السودان الغربي.....44
- توماس هودكير Thomas Hodgkm44
- بلاد الزنج.....55
- جيرفيس ماثيو Gervase Mathew55
- لغز زمبابوي.....65
- رونالد أوليفر Ronald Oliver65
- شعوب ممالك السودان الأوسط.....75
- د. ه. جونز D.H. Jones75

86.....	- دول غابات غينيا.....
86.....	ج. د. فاج J.D. FAGE.....
96.....	- مملكة الكونغو القديمة.....
96.....	س. ر. بوكسر C.R. Boxer.....
105.....	- جنوب الكونغو.....
105.....	ج. فانسينا J. Vansina.....
115.....	- جنوب اليمبوبو.....
115.....	و. م. ماكملان W.M. Macmillan.....
124.....	- الزعيم الأفريقي.....
124.....	سيتهول sayatahual.....
144.....	- الديمقراطية في أفريقيا.....
144.....	سيتهول sayatahual.....

تواجه أفريقيا من الشمال البحر الأبيض المتوسط، وإذا اتجهنا نحو الجنوب تكون الصحراء الكبرى. وقد كان لكل من هذين العنصرين - البحر والصحراء - تأثير حاسم على تاريخ شعوب هذه المنطقة، تاريخها الثري المتنوع. أما دور البحر المتوسط فهو معروف جيداً لدارسي الآثار القديمة، ولا تزال الأطلال الرائعة التي بقيت من مدن سيريني، وليبتز، وماجنا، وسبراتا، وقرطاجنة وغيرها، لا تزال هذه الأطلال حتى يومنا هذا تذكر الرحالة المعاصرين في وضوح وجلاء بهذا العالم الذي اختفى.. وناهيك كذلك بمعالم الطريق الرومانية التي لا تزال قائمة حتى الآن على المسالك التي تؤدي إلى داخل الصحراء.

وقد أدى العمل المتواصل الذي قام به الباحثون وعلماء الآثار من دول كثيرة إلى الكشف عن كثير من الكنوز الثمينة التي كانت مدفونة تحت الرمال طيلة عدة قرون طويلة، وبهذا اتسعت معلوماتنا عن الحضارات المختلفة التي ازدهرت في أفريقيا أثناء العصر القديم، وكشف النقاب في السنوات الأخيرة عن الدور الذي لعبته كل من الصحراء والشعوب التي كانت تستوطن المناطق الداخلية والجنوبية منها في تحقيق ثروات وأمجاد شمال أفريقيا.